الفصل الخامس عشر

صحافـــة
تلك الأيـــام

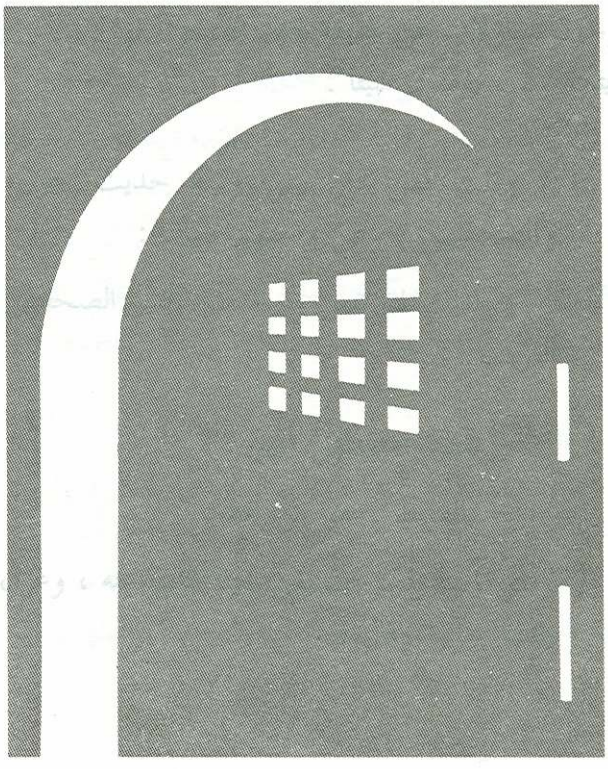

كنا هذه الأيام الثقيلة نعيش خلف العالم ، وكانت ثقة المعتقلين فى الله سبحانه وتعالى كبيرة ، وأملهم فى رحمته غير محدود ، وكانت هناك تساؤلات بين الحين والآخر تدور همسا أو علنا .

ترى ماذا يقول الناس عنا خارج الأسوار ؟

ماهو موقف الصحافة ورجال القانون والنقابات المختلفة ؟

ترى ماهو موقف مجلس الأمة ؟

وماذا يقول الوزراء والكبراء لرئيس الدولة حول هؤلاء الذين يقتلون فى السجون بلا رحمة ، ولا يوجد لهم شفيع يطاع ، أو يخفف عنهم شيئا ؟ .

وكانت التساؤلات بيننا عن « **الصحافة والصحفيين** » أكبر ، فقد كان الظن أنهم يستطيعون شيئا ، يؤلبون الرأى العام ، يطرحون تساؤلات عن حقيقة التهم المنسوبة لهؤلاء ، يكتبون ، يتكلمون ، يفعلون شيئا .

وقلت لمن دار بينى وبينه حديث حول (**الصحافة والصحفيين**) وعن واجبهم حيالنا :

– لعلك لم تنس ما حدث لكبير الصحفيين فى الأمس القريب .

– تقصد **مصطفى أمين** ؟

– بالضبط . هو من أقصد .

وكأنما تذكر صديقى شيئا غاب عنه ، وغرق فى أفكاره يائسا حزينا وقال :

– إن كان الصحفيون لم يتحركوا لاعتقال كبيرهم وإهانته وسجنه وفضحه على رءوس الأشهاد ، فهم بلا ريب لن يفكروا فى أمثالنا أبدا .

وتذكرت كيف غضب عظيم الدولة على الصحفى الكبير ، وكيف أودعوه السجن ، وقالوا هو جاسوس ، ثم جمعوا الصحفيين فى قاعة محكمة الغلق ، وجاءهم أحد (الصولات) من المخابرات ومعه جهاز تسجيل ، وأداره ، فسمع كل من بالقاعة أحاديث غير واضحة المدلول ، غريبة الصوت والنبرة ، وأرغموهم على الجلوس لساعات طويلة ، يسمعون ولا يفهمون ، وفى آخر الجلسة بدت على وجوههم الحيرة الممتزجة بالرعب والخوف .

وقال حضرة الصول :

– واضح من التسجيلات التى سمعتموها الآن أنه جاسوس كبير .

ولم ينطق واحد ببنت شفة ، فقد صدرت التعليمات أن الصحفى الكبير جاسوس وانبرى حضرة الصول مكملا :

– ها قد رأيتم بأعينكم ، وسمعتم بآذانكم ، والويل كل الويل لمن يتحدث مع نفسه حول هذا الموضوع . انصراف .

وخرج الصحفيون كبارهم وصغارهم من القاعة سراعا ، كأنهم إلى نصب يوفضون .

خرج الصحفيون وكل واحد يفكر فى نفسه .

ماذا يفعل حتى يتجنب هذا المصير السيىء .

وعلى حد تعبير واحد منهم كبير :

– يجب على العاقل أن يمشى بجوار الحائط كالكلب . والسجن فى الجريدة أو البيت خير ألف مرة من السجن الحربى أو سجن القلعة .

نفس هذا الصحفى الكبير وأمثاله فى عهد ما قبل سنة ١٩٥٢ ، كانوا يعتبرونهم حجة ومرجعا فى الأمور التى تهم الشارع المصرى . فأثناء تلك المظاهرة التى قام بها الطلبة عام ١٩٤٦ بزعامة **مصطفى مؤمن**، والتى خرجت من الجامعة فى طريقها إلى سراى عابدين تهاجم الملك ، وجد الطلبة كوبرى عباس مفتوحا ، ونزل طلبة من كلية الهندسة وأغلقوا الكوبرى حتى يمر الطلبة . وما أن توسط المتظاهرون فى الكوبرى حتى وجدوا حصارا فى نهايته ، قوات الهجانة على الجمال ، ومن خلفهم قوات (**بلوكات النظام**) ، وأخذ الطلبة فى ذلك اليوم (**علقة**) وصفت بأنها حامية ، ولعلها مفاهيم ذلك الزمن ، فلم تكن أجهزة الأمن العظيمة قد ظهرت بعد ، والتى كان لها شرف حماية النظام العسكرى الأسود الذى عشناه .

وهاجت الدنيا وماجت ، وفسد الحفل الذى أقيم فى اليوم التالى للملك ، وكان بمناسبة عيد ميلاده ، وكان المكان الذى ينبغى عليه زيارته بحرم الجامعة قد غرق بالماء، قد أغرقته خراطيم المطافىء التى كانوا يفرقون بها الطلبة فى اليوم السابق .

وهنا تبرز أهمية الصحافة ويظهر دورها فى بلد هو أقرب للحرية والديمقراطية رغم كافة الظروف الصعبة التى يعيش فيها ، من ملكية فاسدة كما كانوا يقولون ، ونحن معهم فى فسادها ، ولكن لعلها لم تكن أكثر فسادا مما حدث بعد ذلك ، ومن قوات إحتلال إنجليزية ، قد جثمت على صدر الوطن ، حيث للسفير الانجليزى الرأى الأهم ، وحيث وحيث من الكثير الذى حفلت به الكتب ، وتناقله الناس فى مجالسهم ، وقال عنه المحاضرون فى محاضراتهم .

تحركت الدولة ممثلة فى الملك وحاشيته ، فهم السلطة الأعلى فى مصر واتصلوا بالصحافة والصحفيين للنجاة من هذه الثورة التى أحدثها الطلبة والتى جعلت كل شعب مصر متحفزا للمزيد .

وكان الرأى عند ذلك الصحفى الكبير الذى اتهم بعد ذلك بالعمالة والتجسس .

وفى فيلا **أحمد حسنين باشا** ، وهو بمكانته المعروفة من الملك ، كان الاجتماع بزعامة الطلبة منهم **أحمد عادل كمال** ، **حسان حتحوت** ، **مسعد سلام** ، **محمود الشربينى** ، **آخرون** ، وحضر الاجتماع الصحفى الكبير ، وهو الذى رتب له ودعا إليه ، ونصح الرأى بالموافقة على كل طلبات زعماء الطلبة ، وكانت طلباتهم تتركز فى استقالة الوزارة .

واستقال النقراشى ، وجاء إسماعيل صدقى خضوعا لمطالب الطلبة .

كانت المظاهرات تدعو الأمة للوقوف صفا واحدا لمواجهة المشاكل التى كانت تبدو مستعصية فى ذلك الوقت ، وهى التفاوض مع الإنجليز للجلاء عن مصر والسودان ووحدة وادى النيل . وكان الخلاف عظيما وكبيرا

بين الوفد والسعديين ، وكان الطلبة يطالبون الزعماء بتناسى الخلافات والتآزر والوحدة فيقوى أمرهم فى المفاوضات .

مانريد قوله أن الصحافة الحرة كان لها دور عظيم فى توجيه سياسة الدولة وكانت لاتسكت على فساد ، ويمكن لها أن تتدخل لعمل مصالحة وطنية بين طائفة ما وبين الدولة ، وكان يؤخذ رأيها ويعمل لها كل حساب .

ولا شك أن الصحافة هى مرآة الأمة بما فيها من خير وشر ، وهى الميزان ، ومن خلالها يمكن أن تستقيم أمور مجتمع أو تسوء ، وهى انعكاس للأحوال العامة الاقتصادية ، ومدى حضور الحرية أو غيبتها ، وجدية الحكام وعبثهم بمقدرات البلاد .

وكانت الصحافة قبل يوليو سنة ١٩٥٢ تستطيع بالنقد المكتوب على صفحاتها أن تسقط حكومة ، أيا ما كانت تلك الحكومة . ولم يكن هناك شيءٌ يخفى على الناس ، فكل ما يجرى فى الدهاليز الخلفية يكون فى متناول المندوبين المهرة المدربين على التقاط الأخبار ، وعلى بثها فى الصفحات ، فيعلمه الناس ، ويتكون رأى عام قوى يؤثر ويفعل ويحرك الجميع .

وكانت الحكومات التى وصفوها بأنها فاسدة تضج بقدرة هذه الصحافة على الإزعاج وعلى صنع الرأى العام ، وعلى كشف الأسرار ، وكانت الحكومات لاتستطيع إلا القليل فى مواجهة هذه الصحافة فى حدود الدستور والقانون . وغاية قدرتها أن تدفع بعض المصروفات السرية لبعض الصحف والصحفيين تتقى بذلك شر ألسنتهم ، وهو أمر لم يحدث إلا مع القلة ، والأغلبية يرفضون ، ويعتبرونه شيئا مخلا بالكرامة والشرف ، ويضعف المروءة ، ويظهر من يفعل ذلك صغيرا

فى أعين الناس ، وقد قاطع الشعب تلك الصحف التى اشتهرت بأنها تقبض من الحكومة ، ومن ثم لم تعد تؤثر أو يكون لها دور فى مجريات الأحداث .

وكان للصحفيين قيمة كبيرة فى ذلك الوقت كما رأينا ، فكل رجال الحكومة يتودد إليهم ، ويطلب صداقتهم ، ويأخذون رأيهم فى بعض المشاكل الكبرى السياسية ، ويطلبون وساطتهم فى بعض الأمور . وكان فى استطاعة بعض الصحفيين أن يغير رأى الحكومة فى قرار ما قبل أن يصدر ، أو يضغط عليها فى إصدار قرار آخر ، فقد كان لهم وزنهم وقيمتهم ودورهم فى المجتمع .

واستمدت الصحافة قوتها فى ذلك العهد من قدرتها على كشف مايدور وإعلام الناس به ، وأخذ الصحفيون مكانهم من صدقهم فيما يكتبون ، وتحملهم لأية ضغوط قد تقع عليهم فى سبيل كشف الحقائق للناس .

كان الدستور عظيما فى نفوس الناس ، والقانون سيداً لا يجرؤ أحد مهما علت مكانته أن يعبث به أو يمنحه إجازة كما فعل البعض فى زمن لاحق ، فلم يكن من السهل التجاوز فى أمور الحكم والسياسة ، وكانت حرية الفرد غاية كبرى يسعى إليها الجميع ويحرصون عليها ولا يسمحون بالنيل منها ، وإن حدث تآمر على ذلك فمن خلف جدر وأسوار وأستار ، وإن تم ففى أضيق النطاق ، وإن كشف أمره ، وهو عادة ما ينكشف ، تسقط الحكومة ، ويحاسب المتآمرون .

كانت الصحافة فى ذلك الزمن تمثل رقابة قوية ذات فعالية عالية على أعمال الحكومة وعلى السلطة التنفيذية بشكل عام ، وكان المناخ يسمح بكشف كل جريمة حدثت فى الخفاء ، فيتدخل البرلمان ، وتسطع نجوم فى سمائه ، ويستجوب المسئول ، ويذهب ، وربما يذهب الجميع ويأتى غيرهم .

ولعلهم خير من مهدوا وهيئوا الناس لمستقبل أفضل ، وجعلوا البلاغ رقم واحد الذى أذيع صباح ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ يلقى أذنا صاغية من جميع الناس ، فقد تحقق الحلم ، ولم يكن أحد فى ذلك الوقت يعلم الغيب أو يظنه على حقيقته كابوسا رهيبا ثقيلا لما تفق الأمة منه بعد .

ولعلنا لاننسى مقالات المرحوم المجاهد **أحمد حسين** ومجلة مصر الفتاة ، ومقاله الشهير « **رعاياك يا مولاى** » حيث وبخ الملك والنظام بالكلمة وبالصورة وفى شجاعة نادرة .

كان بعض الصحفيين يمالئون الحكومة ، أية حكومة ، يتحدثون عن محاسنها المفقودة ويبررون تصرفاتها نظير مايقبضون . ولكن بعد أزمة مارس سنة ١٩٥٤ ، حيث انفرد عبد الناصر بالسلطة ، وضرب الكل بالحذاء ماذا حدث ؟

حدثونى عن صحفى واحد ، واحد فقط ، لم يطبل ويزمر فى السيرك الذى أقامه عبد الناصر . ولعلنا لاننسى ذلك الصحفى الذى ليس من طبعه النقد ، وظن خطأ أن الكلام عن مذيعة تليفزيون ، فى طريقة تقديمها للبرامج أمر مباح ، فجاءه خطاب الفصل من عمله فى الصباح .

ورضى الصحفى وسكت ، وقبل أن يعيش كما أرادوا له ، ورضى جميع الصحفيين وسكتوا ، وكان أجدربهم ألا يفعلوا .

ولعل العجيب الغريب المثير للدهشة والتأمل أن يتحول جميع الكتاب والمفكرين والصحفيين إلى جوقة من المهرجين

والأراجوزات ، ألا يشذ واحد فيهم ، ويشعر بأمانة القلم ، لم يحدث .

أين العيب ؟ ومن الذى فعل هذا ؟ الخوف والاعتقال والسجن ؟ .

هذه أمور ليست كافية لتحويل الجميع ، لابد أن يشذ شخص ما .

ولعلنا فى حاجة إلى علماء الاجتماع لتفسير هذه الظاهرة وظواهر أخرى كثيرة حدثت فى ذلك الزمن النكد .

كان الصحفيون فى الماضى يتجاوزون عن أخطاء الموتى ، وربما يكرمونهم ويذكرون محاسنهم ، فجاءت حكومات يوليو وعلمت الصحفيين أن المسموح بسبهم ولعنهم هم الموتى فقط ، أما الأحياء فلا يخطئون ، ولا ينبغى أن تمسهم كلمة بسوء .

وبعد أن انفرد عبد الناصر بالسلطة عقب أزمة مارس ومحاولة اغتياله فى المنشية ، والتى لم يكشف عن أسرارها النقاب بعد وبعد القضاء على تشكيل الإخوان المسلمين ، عاش الصحفيون فى الظل ، وصاروا يكتبون مايمليه عليهم الصولات وصف الضباط من أخبار وبيانات ، وعاشت الحكومة والصحافة فى التبات والنبات .

وسارت مسيرة الثورة المباركة بقيادة الزعيم الملهم ، وطحنت فى طريقها كل القوى التى يتشكل منها المجتمع ، وتحول الجميع إلى قابضى مرتبات من الصغير إلى الكبير ، إن قطع عن أحدهم المرتب شهرا مات هو وأولاده من الجوع .

وكما يفعل أى زعيم محترف ألقت المقادير بين قدميه دولة وشعبا ، كون مجموعة من « **الفتوات** » الذين يحترفون

الضرب بالنبابيت لحمايته ونظامه من التهاوى والسقوط . وأعطى هذه المجموعة من «**الفتوات**» الحق فى كل شىء ، ومن ثم صاروا يمنحون حق الحياة والموت لمن يشاءون . وأعطاهم حق السلب والنهب ، وأباح لهم البلاد والعباد على طريقة الغزاة فى سالف الأزمان .

كانوا مجموعة من « **العصبجية** » و « **البلطجية** » استطاعوا بالأموال المنهوبة أن يسكنوا القصور العالية ، وأن يرتدوا الملابس الغالية الثمن ، والروائح الطيبة يضمخون بها وجوههم وأيديهم ، وظل البون شاسعا بين حقيقتهم وبين ما يظهرون به أمام الناس ، فيتكلمون من أنوفهم وهم فى حقيقتهم أذلاء ، يصطنعون التلطف ، وهم أوغاد ، ولعل المعتقلين الذين كانوا فى معتقل القلعة فى عام ١٩٦٨ يذكرون المواقف الطريفة التى تؤكد هذا المعنى ، ولعلهم لاينسون كيف خلع « **على شفيق** » حذاءه وضرب « **حمزة البسيونى** » على أم رأسه ، وكيف تبادلا الشتائم اللاذعة التى يترفع عنها أقل الناس شأنا وثقافة ، ولا يفعلها أصحاب « **اللاسات** » الذين ظلموهم وهم أصحاب مروءه وشرف ودين ، والحديث عن هذه العصابة يطول ، وهو ليس موضوعنا فى هذا المقام ، ولو أن الاستطراد يدفعنا إلى ذكر حكايتين .

الأولى عن « محمود نصر » وهو شقيق « **صلاح نصر** » أحد الذين كانوا يجيدون الضرب بالهراوات لحماية مايسمى بالنظام ، أتوا به إلى معتقل طره السياسى عندما دالت دولة شقيقه وعاش معنا فترة ليست بالقصيرة ، يعمل مديرا عاما بجهاز المخابرات ، هكذا كان يقول ، ويأتى أول الشهر فيأخذنى خلسة إلى زنزانته لأكتب له شيكا من دفتره يرسله

إلى أهله ، وبعد أن أكتبه له يوقع عليه بعلامة لايفهمها إلا هو والبنك ، فقد كان لايعرف الكتابة ، ويقرأ بعض الحروف الكبيرة بصعوبة .

حكى لنا « **محمود نصر** » عن فساد النظام حكايات كنا نستمع إليها مشدوهين ، ولولا مانحن فيه ماصدقنا منها حرفا . وحكاياته كثيرة متعددة طريفة اذكر منها أنه قال لنا :

– « كنا إذا أردنا شراء أشياء من أوروبا ، جمعنا أسماء من يريدون الشراء وكلهم من علية القوم ، وكتبنا مايريدونه ، وأعددنا ميزانية بالمبالغ المطلوبة وكانت لاتقل المرة عن مليونين من الجنيهات الإسترلينية أو الدولارات ، ثم نعد مذكرة عن مهمة وهمية ، نطلق عليها اسما رمزيا ، ونؤكد أهمية القيام بها لحماية الدولة والنظام ، ومن ثم لاتظهر لها طبيعة واضحة فى دفاتر أو وثائق فالحقيقة هى رحلة للشراء ، ومن يوافق على هذه المذكرة له من المشتريات النصيب الكبير ، واعتدنا هذه العملية ، ونسافر إلى أوروبا ونشترى مايشاؤه الكبار حسب الكشوف التى معنا ، ونعود وتحمل البضائع من الطائرة إلى البيوت ، فهى صناديق سرية لا ينبغى لرجال الجمارك مشاهدتها ، ثم نكتب تقريرا عن المهمة أكثر غموضا من المذكرة التى كتبت عن سببها ، ويحفظ التقرير فى أضابير الطلاسم والأسرار حتى يتجدد سبب الشراء من جديد » .

انتهى كلامه .

ليس هناك من يحاسب ، وليس هناك من يتقدم بكلمة نقد لهذا الفساد ، وليس هناك من الأصل من يعرف شيئا عنه ، فقدس الأقداس فى عهد عبد الناصر هو أمن الدولة وعظمة الزعيم ، ولايدخله إلا كهنة مدربون على أحط الأعمال

وأصغرها شأنا ، قد تجردوا من المبادىء والقيم ، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم .

والقصة الثانية عن قوم من العظماء ، جاءوا إلينا ونحن فى معتقل طره السياسى بعد الهزيمة فى يونيو ١٩٦٧ ، وهزيمة يونيو غنية عن التعريف ، فقد بطل السحر فى ساعة من نهار يوم قائظ ، وتحطمت الأوثان الكاذبة ، ولما يعل بعد صوت بلال بالآذان من فوق الكعبة . جاء هؤلاء العظماء بالملابس الغالية والوجوه الحليقة ، ونظرة التأفف مما يرون ، وعطورهم الغالية تملأ بأريجها سماء المعتقل . وعرفنا سبب اعتقالهم ، وكان أجدر بهم أن يخجلوا ، بدلا من العظمة الكاذبة والكبرياء الزائف .

لقد اتفقوا وزوروا مستندات تفيد بأنهم قد قاموا بإنشاءات فى سيناء المحتلة ، وأنهم قد صرفوا عشرات الملايين من الجنيهات المصرية ، على أعمال لم تنفذ إلا على الورق ، وأخذوا ما أرادوا ، لولا حكمة الله البالغة ، فقد كانت هزيمة يونيو سببا لإختلاف جميع اللصوص ، وتغلب فريق على آخر .

وأودع المغلوب معنا إلى حين .

والأمثلة قطرة من بحار السلب والنهب والقهر والجبروت ، فى عهد كان فيه الفساد والإفساد هو الشعار والأساس والمبدأ .

ونعود إلى موضوع الصحافة والصحفيين .

قضى عبد الناصر على كل القوى التى يتكون منها المجتمع قضاء مبرما ، وكان للصحافة دور كبير فى نجاح حركته ، فمقالاتهم وكتاباتهم مهدت للتغيير وهيأت الناس له ، وكانت بعض الدور الصحفية تحتضن بعض الضباط ممن

يعرفون الكتابة مثل أنور السادات الذى عمل بعض الوقت فى روز اليوسف ، وكانوا يتشاورون معهم فيما يعملون ، ويشيرون عليهم أحيانا بما يكتبون ، وكان بعضهم على صلة وثيقة بالضباط ، ومن العناصر الوطنية الصحفية التى كانت على صلة طيبة بهم أحمد أبو الفتح وآل أبى الفتح جميعا ، وكانت « المصرى » ناديا للضباط قبل الحركة وبعدها ، وكان آل أبى الفتح على علم بالتفاصيل . وجاء دور الصحفيين والصحافة بعد أزمة مارس سنة ١٩٥٤ وانتصرت الديكتاتورية وهتف من جمعهم الضباط بسقوط الحرية والديمقراطية والعلم والمتعلمين ، وضرب رئيس مجلس الدولة **الدكتور السنهورى** عليه رحمة الله (بالحذاء) ، من جمهور قد استؤجر خيمت عليه الجهالة والغفلة ، ولم يدر ماذا فعل بمصر والمصريين . وسجن من الصحفيين من سجن ، وهرب من هرب ، وأغلقت بعض الدور الصحفية ، واستحدثت أخرى ، وكسر الجميع أقلامهم وانضموا إلى جوقة المطبلين والمزمرين والمهرجين ، وضاعت الفكرة ، وارتفعت الشعارات الكاذبة الجوفاء ، وعاش الناس على الكلام ، يقتاتونه ويمضغونه كالنعاج ، فى عالم توارت فيه الأسود .

ومضى عبد الناصر بمصر من نكبة إلى نكبة ، فى حلقات متوالية ، كمسلسل تليفزيونى ردىء ، حتى أوحى إليه بعضهم بتأميم الصحافة . وقيل:إن الذى تولى كبر هذا التأميم هو **محمد حسنين هيكل** ، وقيل إن السبب فى ذلك أن لحساب دار المعارف فى بنوك لبنان مبلغا يزيد عن مليون دولار ، فى دولة تسير بالكاد ، وأنه أراد الاستيلاء على هذا المال ليضمه إلى الأهرام ، وهى الجريدة التى أقطعها له عبد الناصر وهو يستفيد منها فائدة عظيمة عن طريق الضيافة لكبار الصحفيين

فى العالم والمنح السخية ، الأمر الذى ردوه إليه بعد أن طرد من الأهرام ، واستضافوه فى بلادهم ، واستكتبوه ووجد حصاد مازرعه من المال الحرام فى زمن فات . هكذا أخبرت .

واستعذب عبد الناصر الفكرة ، فلم يكن يدرى عندما أخذ الدور الصحفية أن هناك قوماً لايزالون يعيشون فى إستقلال ، على الأقل فى لقمة العيش ، أما الكتابة فلم تكن هى النقطة التى يتخوف منها الزعيم ، فقد كان الحذاء مرفوعا ليهوى بقسوة وصرامة على رأس من يكتب كلاما يحتمل أكثر من معنى ، وكم هوى هذا الحذاء بدون سبب على رءوس قد أفرغت من محتواها ، ربما لعداوة محتملة مع أحد الصولات أو رجال « الإنكشارية » .

كان أصحاب الدور الصحفية فى مصر هم من بقوا ولهم شىء يمتلكونه ، ويعيشون منه ، وتحولوا بعد تأميم الصحافة إلى موظفين ، وطرد بعضهم من داره التى أنشأها وأهله فى قصة كفاح فريدة وعجيبة ، جميعهم بلا استثناء كافحوا وجاهدوا حتى صاروا شيئا ، وأقاموا أشياء ، ثم سلبت منهم فى لحظة وبقرار من الزعيم . لم يتغير شىء بعد تأميم الصحافة غير أن الذين يملكون صاروا لايملكون ، وأصبحت الدور الصحفية الكبرى التى تحقق أرباحا سنوية مثل أية مؤسسات فاشلة من مؤسسات القطاع العام . وفى هذا الدرك الأسفل من الضياع حدثت نكبة عام ١٩٦٥ .

بدأت الصحافة عهدها مع حكومة الضباط أثناء إضراب العمال فى كفر الدوار بعد أسابيع من قيام حركة الضباط واختاروا ضحيتين ليمثلوا بهما ، ويكونا عظة وعبرة لمن تسول له نفسه الوقوف أمام قطار الضباط غير المنضبط ،

وكان الناس حديثى عهد بالفوضى وضياع القانون والإستهانة بقيمة الفرد والمقدسات ، وأراد القاضى أن يستكمل الشكل ، فقال لا يمكن لنا أن نشنق البقرى وخميس دون محاكمة ، وهانحن نحاكمهم ، ولابد للمتهم من محام يقوم بالدفاع عنه ، وسألوا الموجودين من النظارة هل فيكم من درس القانون ، وكان بين الصحفيين موسى صبرى الشهير ، فقال إنه خريج كلية الحقوق ، وطلبوا منه الدفاع عن المحكموم عليهم بالإعدام ، وهو الذى جاء ليغطى الأخبار ويعرف القصة ومن ثم ينشرها للناس ، وشارك الصحفى فى مهزلة إعدام البقرى وخميس .

ثم تعود الصحفيون ألا يقولوا الحقائق للناس ، فما يدور شىء ، وما يكذبون به على الناس شىء آخر ، العالم كله يعرف أن اسرائيل انسحبت من سيناء بعد حرب ١٩٥٦ بعد أن أخذت الحق فى المرور من مضايق تيران إلى خليج العقبة ، وهلل الصحفيون بالنصر العظيم . العالم كله يعرف أن أيزنهاور هو الذى أجبر حلفاءه من الإنجليز والفرنسيين على ضرورة الانسحاب ، ويكفى أن تعطى إسرائيل ميزة أو ميزتين ، وكان ماكان ، وهلل الصحفيون بأن « بولجانين » رئيس روسيا هو الذى أجبر الإنجليز والفرنسيين واليهود على الإنسحاب ، وأنه هدد بضرب لندن وباريس بالصواريخ عابرة القارات وعاش الناس على الأكاذيب ، واعتادوها مع الأيام .

صحافة هذه حالها ماذا ينتظر منها أن تقول فى نكبة الأمة الممثلة فى اعتقال أكبر عدد من المثقفين والعلماء والطلبة والعمال من المسلمين ، ثم يلقى بهم فى وغى الظلم ويُنَكلَ بهم أخس تنكيل ؟

لعل من المناسب لهم وأكرم أن يقفوا موقفا مختلفا ، إذا عرفنا أن هناك عدداً منهم ، أو من أقربائهم ومعارفهم ، وهم أصحاب الأقلام وهم الذين يدركون قبل غيرهم أن هذا انحدار وانهيار ، وكانوا يستطيعون شيئا لو أرادوا .

فقدت الصحافة هيبتها ، وفقد الصحفيون كرامتهم .

ونقلب فى صحافة تلك الأيام السوداء الكالحة .

جريدة اسمها « الجمهورية » ، يومية ، مازالت تصدر حتى الآن ، رئيس تحريرها اسمه مصطفى بهجت بدوى ، فى العدد ٤٢٧٩ بتاريخ الأربعاء ٨ سبتمبر سنة ١٩٦٥ ، وهو الذى أنقل منه بعض المقتطفات .

العناوين الرئيسية كالتالى فى الصفحة الأولى :

حقائق خطيرة عن مؤامرة الإخوان .

قوائم الاغتيالات :

أعدها الإخوان للتنفيذ فى أعياد الثورة بالقاهرة .

والإسكندرية .

مؤامرة لنسف موكب الرئيس جمال عبد الناصر .

سيد قطب يرأس التنظيم بالداخل وسعيد رمضان يتولى عمليات التمويل من الخارج .

أوامر إلى الإرهابيين بالانتحار فورا بعد ارتكاب جرائمهم .

ثم على اليمين صور لأربعة من الشباب المعذبين .

صورة لممدوح الديرى وتحت الصورة كتب:صاحب مخزن أسلحة غمرة .

صورة لحمدى حسن صالح وتحت الصورة كتب:رسم مراكز الشرطة .

صورة لمحمود فخرى وتحتها عضو فى التنظيم السرى .

صورة لمحمد عبد المعطى إبراهيم وتحتها صاحب مخزن أسلحة المطرية .

وعلى اليسار صور غامضة ، ومن يشاء يستطيع الرجوع إلى الجريدة .

صورة ليد ممسكة بمسدس ، شبيه بمسدسات الأطفال التى يلعبون بها ، ونظارة مكبرة ، وعلبة مفكات وأدوات ميكانيكية مثل تلك التى تستخدم فى فك الصواميل .

كتب تحت هذه الصورة الآتى :

كميات من المسدسات ونظارات مكبرة ضبطت لدى المتهمين .

الصورة التى تحتها أكثر غموضا كأنها لموتور سيارة ، قد ظهر منه البوجيهات وبعض الأسلاك .

كتب تحت هذه الصورة الآتى :

أجهزة لتفجير الديناميت كانت معدة لتدمير الأحياء الشعبية .

هكذا ! لتدمير الأحياء الشعبية ! ولماذا الأحياء الشعبية ؟

الصورة الثالثة لحزام مما يلبسه الأطفال يوم العيد ويلعبون به .

كتب تحتها الآتى :

أحزمة لطلقات الرصاص والمدافع الرشاشة .

الصورة الرابعة ليد ممسكة بزجاجتين « جولوكوز » مما يقدم فى المستشفيات .

كتب تحتها الآتى :

مواد شديدة الانفجار أعدها المتآمرون لنسف المنشآت .

إى والله ! زجاجتا جولوكوز ، وماذكرت قد كتب تحت الصورة .

الصورة الخامسة غامضة غير ظاهرة لبعض اللعب ، ويد ممسكة بمطواة .

كتب تحتها الآتى :

مئات من الخناجر ضبطت لدى المتآمرين قبل أن يقتلوا بها المواطنين .

فى أسفل الصفحة على اليمين إعلان عن أحذية باتا شعار العصر .

وفى أسفل الصورة على اليسار إعلان عن المكتبة الاشتراكية .

الثقافة والإرشاد القومى تقدم مائة كتاب عن الاشتراكية .

هكذا وارجعوا إلى عدد « الجمهورية » .

فلسفة الثورة .. التحول العظيم .. الميثاق .. الخ هكذا مكتوب .

وبالخط الأحمر الكبير كتب فى سطر مستقل :

للرئيس جمال عبد الناصر .

وبعد ذلك فى الإعلان نفسه :

التطبيق الإشتراكى فى مصر .. للسيد على صبرى

مشاكل التطبيق الإشتراكى فى الخطة الخمسية الأولى

ثم بعد ذلك أسماء هزيلة لكتب لامعنى لها ، لاتسمن ولاتغنى من جوع .

بطبيعة الحال جميع الناس تعلم أن جمال عبدالناصر لم يكتب حرفا مما نسب إليه ، أو لعلهم عرفوا وتأكدوا بعد ذلك .

ثم التقرير الرئيسى عن مؤامرة الإخوان المزعومة ، بالصور الخادعة لأسلحة هزيلة ، لم يخجلوا من نشرها وتزويدها .

وتحت عنوان قتل المواطنين كتب المحرر قليل الحياء ما يأتى :

« وكان هؤلاء المتآمرون مكلفين بالحصول على السلاح بأية وسيلة ، وهى قتل أى مواطن للحصول منه على سلاح إن كان معه سلاح ، بالإضافة إلى الإستيلاء على مراكز الشرطة والهجوم عليها أثناء عمليات التخريب والإستيلاء على مابها من أسلحة » .

قوم متآمرون ، ليس معهم سلاح ، يبحثون عنه بأية طريقة ، ومنها قتل من يحمل سلاحاً لأخذ سلاحه .

أليس هذا استخفافا بعقول الناس ؟

أما كان أجدر بالمحرر أن يناقش « الصول » الذى أملاه التقرير ليكتبه ؟

ماعلينا .

بعد ذلك بعدة سطور يكتب التالى :

« وعلم المحرر القضائى للجمهورية » ،
وكلمة المحرر القضائى للجمهورية توحى بالإحترام ،
ولكن نكمل الكلام المنشور !

« أنه كان هناك تنظيمان أحدهما هو تنظيم حسين توفيق الذى نوى ارتكاب عمليات الاغتيال بأى وسيلة دون أن يحدد الوقت والطريقة التى ينفذ بها خطته الإجرامية بسبب عدم وجود السلاح فى يده » ،

ثم بعد ذلك كلام فارغ أكثر غثاثة مما قرأنا .

مؤامرة لقلب نظام الحكم وقتل السيد الرئيس جمال عبد الناصر وتابعه المشير عبد الحكيم عامر ، وغيرهما وغيرهما فقد حفلت القوائم بالكثير .

كل هذا يتم بغير سلاح
لابد من الحصول على السلاح .
كيف ؟

نقتل كل من يحمل سلاحاً .
وهل يحمل الناس فى مصر سلاحاً ؟
وإن كانوا يحملون . كيف نقتلهم بدون سلاح ؟
وننتقل إلى الصفحة رقم ٢ من جريدة الجمهورية المذكورة العدد نفسه ، فنجد إعلاناً عن برامج الإذاعة والتليفزيون .
وعنواناً نظرات فى صحف العالم .
جولدووتر هل يساوى ٧٠ ألف جنيه ؟
الدماء لاتزال تسيل بغزارة فى وديان كشمير .
مسرح الريحانى كيف ندعمه ؟

أين تسهر هذا المساء .

سينمات .

شفيقة القبطية فى سينما ريتس ، حكاية العمر كله فريد الأطرش .

ثم عمود نقد فنى بتوقيع أحمد عبد الحميد .

وننتقل إلى الصحفة الثالثة من نفس العدد من جريدة الجمهورية .

ونجد فيها تفاصيل مضحكة وصورا هازلة لمؤامرة الإخوان المزعومة .

وأكتفى من الكلام الذى ملأ الصحفة الثالثة بالعناوين :

« تشكيل جهاز سرى للاغتيالات والنسف والتدمير والتخريب » .

« وضع مواد متفجرة فى الأماكن العامة والاستيلاء على مراكز السلطة والإذاعة ونسف مطار القاهرة ومحطات الكهرباء » .

« تدريب عناصر جديدة على استخدام السلاح والقتل والنسف واستخدام الديناميت والمتفجرات والقنابل » .

سبحان الله !

كيف يتم كل هذا ؟

هذه أمور تحتاج إلى جيش نظامى مدرب ومنظم فى عملية غزو محكمة للبلاد ، ولايستطيع القيام بها هؤلاء الأطباء والمهندسون وعلماء الطاقة الذرية والمدرسون والعمال والطلبة الذين قبض عليهم .

ولم تجد الجريدة غضاضة فى الخروج على الناس بهذه الأكاذيب .

الصحفة الرابعة بها أخبار دولية لاتستحق الذكر .

الصفحة الخامسة تحت عنوان :

« مشروعات جديدة للإنتاج والخدمات
٦١٦٩ فدانا يتم استصلاحها فى وادى النطرون » .

ثم تصريح لواحد اسمه اللواء **حسن صبيح** عن ذلك .

وهاهى عشرون عاما تمضى وأخبرونى كم فدانا تزرع الآن فى وادى النطرون وفى أعلى الصفحة على اليمين :

« مكاسب ضخمة يحققها التعاون الزراعى للفلاح » .

وعلى اليمين صورة لواحد اسمه **عبد المحسن أبو النور** وواحد آخر اسمه د. حامد النشرتى وريبورتاج عن الإصلاح الزراعى ومكاسب الفلاحين . يبدو أنها الصفحة الزراعية !

نحن نكتب هذا بعد عشرين عاما ، بعد أن انقرض مايسمى بالفلاح فى مصر أو يكاد .

الصفحة السادسة كلها عبارة عن إعلان كبير والعناوين :

القاعدة الشعبية بمحافظة الاسكندرية تستنكر مؤامرة الغدر والخيانة .

السيد الرئيس جمال عبد الناصر – القاهرة

« الأمناء والأمناء المساعدون للجان الاتحاد الاشتراكى العربى بجميع مستوياته المجتمعون اليوم فى هيئة مؤتمر يستنكرون المؤامرة الغادرة لعصابة الإخوان والرجعية ويطالبون بالضرب بشدة على أيدى من تسول له نفسه الغدر بهذا الوطن والحاق الضرر بأبنائه والنيل من مكاسبه التى حققتها ثورة يوليو المجيدة ويقررون أنهم فى حالة تعبئة كاملة ضد أى مؤامرة يدبرها الإستعمار وأعوانه وأى انحراف يحاول أن يعرقل سير الوطن نحو أهدافه الكبرى – وأنهم يعاهدون الله باسم القواعد

الشعبية التى يمثلونها أن يقفوا صفا واحدا وراء سيادتكم وأن يتصدوا بكل قواهم وإمكاناتهم لضرب أعداء الوطن وسحق كافة المحاولات التخريبية – حفظكم الله حاميا للوطن وذخرا للعروبة . »

ثم توقيع ملأ الصفحة بأسماء كل المصالح والهيئات الحكومية بالاسكندرية . . وقد استجاب الله دعاءهم ، وحمى الوطن وكان ذخراً للعروبة حتى صباح الاثنين ٥ يونيو ١٩٦٧ .

هذا الإعلان ثمنه حوالى ثلاثة وعشرون ألفا من الجنيهات المصرية ، وكان ينشر فى جميع الصحف وكل يوم .

وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكاء .

الصفحة السابعة من الجريدة الغراء .

عناوين كبيرة .

« روسيا تقبل اقتراح الجمهورية العربية المتحدة بوقف التجارب الذرية تحت الأرض فورا » .

وتحت ذلك كلام كثير كله كذب .

« وقف المساعدات الأمريكية للهند والباكستان »

« باكستان تستنجد بدول الحلف المركزى »

« بومدين يجتمع بأمين الحافظ »

« السلال يجتمع بكبار الضباط بالقيادة العربية »

ثم إعلان على نصف صفحة .

إدكو تهنىء بعودة رائد السلام .

صورة الرئيس جمال عبد الناصر .

صيغة برقية موقع عليها من أحمد عطية العدل مراسل جريدة الجمهورية فى إدكو تقطر نفاقا وكذبا وجهلا .

ثم التوقيعات .

الصفحة الثامنة من الجريدة المنكودة .

عناوين :

« المشير عامر يستقبل سفير باكستان » .

« الرئيس عارف يزور الجزائر »

« عبد الناصر سعى للسلام فى جدة وموسكو »

« عالم صواريخ أمريكى يزور إسرائيل »

صورة لأحمد الشقيرى وتحتها :

« وفد منظمة التحرير الفلسطينية فى مؤتمر الدار البيضاء »

« آثار النوبة يتم إنقاذها فى العام القادم » .

« على عامر وصل الجزائر » .

« عبد الخالق حسونة وصل المغرب » .

وعمود على شمال الصفحة تحت عنوان « رأى الجمهورية » .

ولاضرورة لنقل الهراء المكتوب ، ولكن صاحب العمود الذى لم يوقع باسمه يتهم الاستعمار بتمويل الإخوان للقضاء على زعماء الشعوب الحقيقيين من هذا الإستعمار ؟ لم يذكر الكاتب عنه شيئا .

الصفحة التاسعة .

نصف الصفحة على الشمال استنكار من الشعب لمؤامرة الإخوان .

النصف على اليمين أخبار متفرقة .

« الكوبرى المعلق ينتهى إعداده بعد ثلاثة أشهر » .

الاسكندرية – مكتب الجمهورية .

« يتم فى الأشهر الثلاثة القادمة إعداد الكوبرى المعلق الذى يربط بين محطة الركاب وباب الجمارك بحيث ينزل السائح من المركب ويخرج من طريق الكوبرى بعد تفتيش مايحمله من أمتعة » .

ملحوظة : بعد عشرين عاما لم يتم هذا .

أخبار عن **محمد عبد القادر حاتم** .

أخبار عن د . **نزيه ضيف** .

أخبار عن **محمد كمال عبد الحميد** .

« وزير العدل يجتمع برئيس النقض والنائب العام »

« وافقت دكتورة **حكمت أبو زيد** وزيرة الشئون الاجتماعية على إنشاء معهد لربات البيوت لتخريج قائدات مدربات يقمن بتوجيه الأسر فى الريف وتعليمها مختلف الصناعات اليدوية . »

ملحوظة : لم يتم هذا حتى الآن .

« تقام بمنطقة حلوان محطة كبرى لمياه الشرب ضمن المشروعات التى ينتظر تنفيذها للنهوض بهذه المنطقة ، بحيث تتوافر فيها مشروعات كاملة للخدمات كالكهرباء والمجارى والمساكن » .

ملحوظة : لم يتم هذا حتى الآن .

ونكتفى بهذا القدر من الصفحة التاسعة ، ومن أراد أن يطلع على أخبار كاذبة أخرى لم أوردها فليرجع إليها ، إلى جريدة الجمهورية العدد المشار إليه .

الصفحة العاشرة رياضة .

الصفحة الحادية عشر رياضة .

وبها عنوان :

الرئيس جمال والملك فيصل يشاهدان ختام الدورة .

الصفحة ١٢ هى صفحة الحوادث .

« ضبط حادثتى تهريب بمطار القاهرة » .

واحد يحاول تهريب ٢٥٠ جنيه (مائتين وخمسين جنيها) والآخر (٤٠٠ جنيه أربعمائة)

وفى النصف الشمال من نفس الصفحة :

عيد الفلاحين وعودة الروح ، وتحتها كلام كثير .
قصيدة فى مدح جمال عبد الناصر عنوانها عودة المنتصر بقلم نجاتى عبد الرحمن .
الصفحة ١٤ أموات وأختام مفقودة وإعلانات وظائف .
آخر صفحة .
الصفحة ١٥
اليوميات بقلم **إبراهيم نوار** تحت عنوان « **الجريمة والعقاب** »
يشتم الإخوان ويطالب بقتلهم جميعا فى نصف صفحة .
ثلاث صور خليعة منقولة من مجلة أجنبية .
حديث المدينة به أخبار تستخف بعقول الناس .
« مجلس الجمارك الأعلى بلبنان قرر شراء ١٢ غواصة لاكتشاف التهريب »
ترى كم يشترى جيش لبنان للدفاع عن أرضه ؟
« أسد يبكى تأثرا من المعاملة الحسنة التى لقيها من سلطات الجمهورية العربية المتحدة أمام جمع غفير من الناس » .
أسد يبكى ياأوغاد ؟
« أم كلثوم تودع محمد فوزى فى المطار »
عمود لعبد العظيم أنيس ، عمود صغير متواضع .
إعلان عن فيلم « **وكر الشيطان** » فى آخر الصفحة إلى اليسار .
انتهى عرض هذا العدد من جريدة الجمهورية .

جريدة الأهرام فى ٢٢ أغسطس ١٩٦٦. العدد ٢٩١٠٩
رئيس التحرير محمد حسنين هيكل .
العناوين الرئيسية :
٧ أحكام بالإعدام

الحكم بالإعدام على ٧ : هم الذين ألفوا التنظيم السرى « للإخوان » وقادوا تدريبه وتسليحه ورسموا الخطط الإرهابية للاغتيال والتخريب .

الحكم على ٢٥ : هم الذين قادوا تشكيلات التنظيم وتحركوا لتنفيذ الخطط المدبرة .

أحكام أخرى لمحكمة أمن الدولة أمس فى قضية التنظيم السرى : أشغال شاقة ١٥ سنة (٧ متهمين) – أشغال شاقة ١٠ سنوات (٤ متهمين)

وتحت هذه العناوين مايلى :

قضت محكمة أمن الدولة العليا أمس بإعدام السبعة الأول فى قضية التنظيم السرى للإخوان .. هم رئيس وأعضاء مجلس القيادة .

* **سيد قطب إبراهيم** : رئيس التنظيم
* **محمد يوسف هواش** : نائب رئيس التنظيم
* **على عشماوى** : مسئول التدريب والتسليح وقائد القاهرة .
* **عبد الفتاح إسماعيل** : مسئول التمويل والاتصال الخارجى وقائد المنطقة الشرقية .
* **أحمد عبد المجيد عبد السميع** : مسئول الأمن والمعلومات وقائد الصعيد .
* **مجدى عبد العزيز متولى** : مسئول التنظيم العسكرى وقائد الإسكندرية والبحيرة .
* **صبرى عرفة الكومى** : قائد الدقهلية والغربية ودمياط .

أعلنت المحكمة قرارها بعد التصديق عليه استنادا إلى ماثبت خلال المحاكمة من أن :

١ – كل المتهمين فى القضية « حاولوا تغيير دستور الدولة وشكل الحكومة فيها بالقوة بأن ألفوا من بينهم – وآخرون معهم – تجمعا حركيا وتنظيما سريا مسلحا لحزب الإخوان المسلمين المنحل يهدف إلى تغيير نظام الحكم القائم بالقوة بإغتيال رئيس الجمهورية والقائمين على الحكم ، وتخريب المنشآت العامة ، وإثارة الفتنة .. وتزودوا فى سبيل ذلك بالمال اللازم ، وأحرزوا مفرقعات وأسلحة وذخائر ، وقاموا بتدريب أعضاء التنظيم على استعمال تلك الأسلحة والمفرقعات ، وحددوا أشخاص المسئولين الذين كان سيجرى إغتيالهم وعاينوا محطات توليد الكهرباء والمنشآت العامة التى كان سيتم تخريبها ورسموا طريقة التنفيذ وتهيئوا للتنفيذ فعلا وعينوا الأفراد الذين كانوا سيقومون به .. وان عملية الضبط هى فقط التى حالت دون إتمام المؤامرة .

٢ – السبعة المتهمون الأول هم الذين كانوا يتزعمون التنظيم كله ويقودون حركته .

□ ولهذا فقد حكمت المحكمة عليهم – طبقا لنص المادة ٨٧ عقوبات التى تقضى بالإعدام على من ألف عصابة مسلحة لقلب نظام الحكم بالقوة أو تزعمها أو تولى فيها القيادة .

□ وحكمت على ٢٥ – منهم ثلاثة هاربون فى السعودية صدرت الأحكام عليهم غيابيا – بالأشغال الشاقة المؤبدة طبقا لأدوارهم الفرعية فى قيادة التنظيم التى تلى دور مجلس القيادة مجتمعا .. وهم : عبد المجيد الشاذلى ، مبارك عبد العظيم ، فاروق المنشاوى ، فايز اسماعيل ، ممدوح الديرى ، محمد أحمد عبد الرحمن ، محمد عبد المعطى إبراهيم ، محمد المأمون زكريا ، أحمد عبد العزيز سلام ، السيد سعد الدين الشريف ، إمام عبد اللطيف غيث ، كمال عبد العزيز سلام ،

فؤاد حسن على ، محمد أحمد البحيرى ، حمدى حسن صالح ، مصطفى الخضيرى ، السيد نزيلى عوضين ، مرسى مصطفى مرسى ، حلمى صادق حتحوت ، عبد المنعم عرفات ، محمد عبد الفتاح الشريف . السيدة : زينب الغزالى الجبيلى التى دعت إلى التنظيم وعملت على تجميعه وأمنت له اجتماعاته حتى تم تشكيله .

الهاربون : محيى الدين هلال ، عشماوى سليمان ، مصطفى العالم .

□ وحكمت على الباقين كل طبقا لدوره فى قيادة التنظيم الذى يجىء فى الترتيب بعد دور مجلس القيادة ودور القواد الفرعيين :

محمد عبد المنعم شاهين : أشغال شاقة ١٥ سنة .
عباس السيسى : أشغال شاقة ١٥ سنة .
محمد بديع سامى : أشغال شاقة ١٥ سنة .
جلال بكر الديساوى : أشغال شاقة ١٥ سنة .
صلاح محمد خليفة : أشغال شاقة ١٥ سنة .
إلهام عبد المجيد بدوى : أشغال شاقة ١٥ سنة .
محمد عبد المعطى عبد الرحيم : أشغال شاقة ١٥ سنة .
محمود أحمد فخرى : أشغال شاقة ١٠ سنوات .
محمود عزت إبراهيم : أشغال شاقة ١٠ سنوات .
صلاح محمد عبد الحق : أشغال شاقة ١٠ سنوات .
والأشغال الشاقة لمدة ١٠ سنوات على **حميدة قطب شقيقة سيد قطب** ورسوله إلى التنظيم ورسول التنظيم إليه طوال فترة الاتصال التى تمت به وهو فى السجن ، وحاملة الأوامر بتعيين نائبه وبدء الضربة الشاملة عند ماأعطى إشارة تنفيذ المؤامرة ثم سافر إلى رأس البر .

كذلك قضت المحكمة بمصادرة كل المضبوطات المتعلقة بالجريمة .

كل متهم يسمع الحكم على انفراد (عنوان جانبى)

وكانت المحكمة – المشكله من اللواء أحمد وحيد الدين حلمى عضو اليسار فى الدائرة الأولى نائبا عن رئيسها د . الرائد عز الدين رياض نائب الأحكام والأستاذ حسن جمعة رئيس النيابة المنتدب – قد دخلت غرفة الإجتماعات بجناح نيابة أمن الدولة العليا فى مبنى مجلس قيادة الثورة القديم فى الساعة العاشرة والربع صباحا حيث أعلن اللواء أحمد وحيد « فتح الجلسة لإعلان الأحكام » وبعد ذلك نودى على المتهمين الذين كانوا فى القفص داخل قاعة الجلسات – ماعدا زينب وحميدة فكانتا فى غرفة المتهمين – فجاء المتهم الأول وتلا عليه الرائد عز الدين رياض الحكم وانصرف .. وهكذا تم إعلان جميع المتهمين كل على حدة . وكان نائب الأحكام يقرأ من دوسيه فى يده يضم الأحكام والتوقيع عليها بالتصديق وفى الساعة العاشرة و ٤٥ دقيقة انتهى إعلان الأحكام فأعلن اللواء حلمى « قفل الجلسة » وفى نفس الوقت الذى كانت تعلن فيه الأحكام .. كان أمناء سر النيابة يحررون الخطابات الخاصة لكل متهم والتى تتضمن الحكم عليه .. ثم يسلمونها لرجال الأمن المرافقين له فيصحبونه إلى السيارة الخاصة به .

ولقد كانت هناك سيارة خاصة بالسبعة المحكوم عليهم بالإعدام .. توجهت بهم إلى سجن الإستئناف فى باب الخلق ووضعوا كل منهم فى زنزانة خاصة – وفقا لنظام السجون .

كذلك كانت هناك سيارة تقل المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة اتجهت بهم إلى أبو زعبل وطرة .

وكانت هناك سيارة تقل زينب الغزالى وحميدة قطب . وتوجهت بهما إلى سجن النساء فى القناطر .

وفى أعلى منتصف الصفحة الأولى من جريدة الأهرام العدد المشار إليه كانت صورة لسيد قطب ومن معه وهم فى لحظة الإستماع إلى الأحكام كما كتب تحت الصورة ، ومن شاء فليرجع إلى الصورة ، هدوء وثقة وبشاشة . وسلطان الظلمة يخيم على سماء مصر ، حتى يأخذ الشهداء طريقهم إلى الجنة .

تم هذا تحت عين وبصر رجال الفكر والقانون والكتاب والصحفيين والمدرسين والأطباء وكل أفراد الشعب ، ولم يفتح واحد فمه احتجاجا . ونتصفح الجريدة فنجدها مليئة بالتفاهة والركاكة والسخافات وفى الصفحة رقم ٩ نجدهم يذكرون الناس بالأكاذيب التى رَدَّدُوها عن الإخوان من قبل ، المتفجرات المزعومة ، ونسف الكبارى ، وهدم مطار القاهرة ، وأشياء كثيرة مضحكة ، وزجاجات الكولونيا ٥٥٥ التى قالوا عنها متفجرات وصوروها.

ولايوجد اسم كاتب واحد فى هذا العدد إذا استثنينا محمد حسنين هيكل فى أول صفحة ، واسم كمال الملاخ فى آخر صفحة .

مولد وصاحبه قد مات .

ومافات فات وكل ماهو آت آت

عملية اغتيال غير إنسانية ، وتعذيب بشع ، وإجرام تعدى كل الحدود تمارسه الدولة على مجموعة من الناس العزل من السلاح ، تحت نظر الدنيا جميعها وبصرها ، وبإشراف صحافتها ، ولايرتفع صوت ، ولايتحرك قلم .

أما أخبار اليوم ففى عددها الخاص بتاريخ ١٩٦٥/٩/٢٥ فكانت عناوينها كالتالى :

قنابل تحت الأرض

تعليمات سرية للإرهابيين : انسفوا شوارع القاهرة .

وحكمة اليوم على يمين الصفحة :

« لاإكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » صدق الله العظيم

وتحت خبر اليوم على يسار الصفحة :

« قال الخبراء إن المفرقعات التى ضبطت مع الجماعة الإرهابية تعتبر الأولى من نوعها فى علم الجريمة ، يقوم الخبراء فى الوقت الحاضر بدراسة تركيب هذه المفرقعات » .

وتحت هذا كله :

تفاصيل الخطة الرهيبة لتفجير مفرقعات داخل مواسير المجارى - (عنوان على سطرين)-

« أعدت جماعة الإرهابيين خطة كاملة لنسف شوارع القاهرة . تم ضبط كميات ضخمة من القنابل شديدة الإنفجار والمفرقعات كان الإرهابيون ينوون وضعها فى مواسير المجارى التى تمتد تحت شوارع القاهرة . وضعوا خططا لتفجير مقاطع الطرق الرئيسية والميادين الكبرى .

صدرت التعليمات السرية للإرهابيين بنسف الشوارع عند بداية المؤامرة . قالوا لهم:إن عملية نسف الشوارع بالقنابل والمفرقعات ستؤدى إلى قطع المواصلات . وبذلك يصبح فى وسعهم السيطرة على الموقف والتسلل إلى الحكم » .

ثم مزيد من هذا الهراء .

وعمود على يمين الصفحة الأولى تحت عنوان « هذا العدد » غير موقع ، ولايوجد توقيع واحد فى هذا العدد :

« لأول مرة فى تاريخ الصحافة العربية يشترك أكثر من ١٠٠ محرر فى تغطية قصة صحفية واحدة كبيرة ، إنها قصة الظلام والإرهاب والرجعية والخيانة والاستعمار ، قصة جماعة الإخوان كانت البداية بسيطة .. إجماع رائع من محررى صحف ومجلات أخبار اليوم على ضرورة مساهمتهم فى كشف الخيانة كاملة للرأى العام .. وتبلور هذا الإجماع الحماسى الرائع فى ضرورة إعداد ملحق خاص كبير يكون سجلا يقدمونه للشعب .. ويرسمون به الصورة الحقيقية لهذه الجماعة الخائنة بلا انفعال .

ومضت أيام طويلة من العمل المرهق قبل أن يعودوا ومعهم الفصول الأخيرة من القصة الطويلة الدموية .

إن الصحفيين فى أخبار اليوم وهم يقدمون للشعب هذا الجهد المتواضع يؤكدون فى نفس الوقت الدور الحقيقى الذى تقوم به الصحافة الاشتراكية نحو الشعب .. مالكها وصاحبها ومعلمها الكبير . »

هكذا .. ولاأحد يعرف من الخادع ومن المخدوع . دار صحفية كاملة بجرائدها ومجلاتها ومائة من المحررين النابهين يعدون عددا خاصا ليس فيه كذب فحسب ولكن احتقار واستهانة بعقل كل من يقرؤه .

وعنوان كبير فى الصفحة الأولى :

قرروا إغتيال أم كلثوم لأن لها معجبين من الرجال .

« كانت جماعة الإرهابيين والسفاكين تزمع اغتيال محمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ والسيدة ام كلثوم . ولما سئل سيد قطب عن السبب قال :

– حكم القرآن .

ولما قيل له :

– وهل يوجد فى القرآن مايوحى باغتيال واحدة مثلا كالسيدة أم كلثوم ؟

قال :

– طبعا لأن لها معجبين من الرجال .

هكذا كان الحوار – كما زعمت الجريدة ومحررها الذى لم يوقع اسمه ولعله موسى صبرى – مع العلامة الشهيد سيد قطب صاحب ظلال القرآن والعدالة الاجتماعية فى الإسلام ، وخصائص التصور الإسلامى ومقوماته وحياته التى أفناها فى العلم والتعليم والجهاد فى سبيل الله ، ولكنهم يكتبون ولايوجد من يرد عليهم ، فى زمن غاب فيه الرجال .

وصورة فى منتصف الصفحة للعالم الشهيد سيد قطب وتحتها :

« كان سيد قطب قد سافر إلى أمريكا بدعوة شخصية . وعاد الإرهابى إلى القاهرة بعد أن أمضى سنة كاملة هناك .. وفى القاهرة نشر الإرهابى الإخوانى بعد عودته كتابا يهاجم فيه الإشتراكية العربية بدعوى أنها تتعارض مع الإسلام »·

هكذا .

والمعروف أن الشهيد سيد قطب اعتقل وسجن فى مطلع عام ١٩٥٤ وظل مسجونا حتى غادر السجن قبل اعتقاله مرة ثانية وإعدامه فى عام ١٩٦٦ .

والمعروف أن الاشتراكية العربية ولدت أثناء سجنه . والذى أعرفه أن له كتابا يهاجم فيه الرأسمالية نشر قبل حركة الضباط عام ١٩٥٢ .

ولكن لايوجد من يرد .

ونصف العدد صور للإخوان وسب فيهم .

والنصف الآخر صور للزعيم الملهم وشكر لله على نجاته .

هكذا كانت الصحافة فى تلك الأيام الصعبة .

ونعاقب من أو نلقى باللوم على من ؟

أمر بالغ الصعوبة شديد التعقيد .

وقبل أن أترك هذا الفصل أود أن أنقل جزءاً من مقال الأستاذ **محمود عبد المنعم مراد** فى مجلة أكتوبر العدد ٤٤٩ الصادر فى ٢ يونيو ١٩٨٥ تحت عنوان « **للتاريخ فقط** » :

« هذه قصة جريدة ، أروى بعض فصولها للتاريخ فقط دون مجاملة لأحد ، ولاتجن على آخر . فى يوم السبت الماضى ، أصدرت المحكمة الإدارية العليا حكمها النهائى فى القضية التى رفعها ورثة المرحوم الأستاذ **محمود أبو الفتح** ، صاحب جريدة المصرى ، والتى طالبوا فيها برد ممتلكات مورثهم ، من أراض وعقارات ومجوهرات وأموال ، كما طالبوا فيها بإلغاء القرار الذى صدر بسحب ترخيص جريدة المصرى . والشق الأول من المطالب ، لايعنينا هنا كثيرا ، إلا أن نقول إن المحكمة قضت برد بعض الأموال والممتلكات ، والتحف التى لم يعرف حتى الآن مصيرها ، ومنها لوحات فنية أصلية موقعة من كبار الفنانيين العالميين الذين رسموها ، وسجاجيد غالية الثمن ، وأطقم للمائدة مصنوعة من الذهب الخالص تقدر قيمتها الآن بملايين الجنيهات ، ولكن الذى نريد الحديث عنه هو الصحيفة . وقد بنى الورثة مطالبتهم بالغاء قرار سحب الترخيص بناء على مانشرته الصحافة المصرية عقب إغلاق الجريدة بأنه صدر قرار بسحبه ، ولكن المحكمة التى أصدرت الحكم بعد منازعات قضائية استمرت أكثر من ثلاثة عشر عاما ، انتهت إلى انه لم يثبت صدور قرار بسحب ترخيص المصرى ، ومن ثم فهى لا تستطيع أن تحكم بالغاء قرار لم يثبت صدوره .

وقد كنت شاهدا على الأحداث التى أدت وانتهت إلى

إغلاق الجريدة . التى كانت فى ذلك الوقت أوسع الصحف العربية انتشارا فى العالم كله . ففى مساء الثالث من مايو سنة ١٩٥٤ ، فوجئنا بعدد كبير من ضباط وجنود الجيش والشرطة يقتحمون مبنى الجريدة وأمرونا جميعا بمغادرته ، وكان مقرها مكونا من مبنيين أحدهما للإدارة والآخر للتحرير ، وبينهما حديقة صغيرة كنا نوقف فيها سياراتنا الخاصة . وعندما أردت الخروج بسيارتى استوقفنى أحد الضباط ، وأراد أن يحجز السيارة ليتم التحفظ عليها ، مع كل مافى الجريدة من أدوات وآلات ومكاتب ... الخ ، وبعد مناقشات طويلة ، وبمقتضى ترخيص السيارة الدال على أنها ملك خاص لى ، وليست ملكا للجريدة ، خرجت بها ، وأوقفتها على بعد أمتار من المبنى ، ولم أعرف إلى أين أذهب ، كنت قد قضيت فى هذه الصحيفة ثمانى سنوات كاملة ، لم آخذ فيها إجازة ، ولم أعد إلى بيتى خلالها قبل الفجر ، أو قبل الصباح بعد شروق الشمس .

وفى تلك الليلة لم أستطع أن أعود إلى البيت بحكم العادة ، فجلست على الرصيف ساعات ، لاأدرى ماذا أفعل ، وكان لابد من الجلوس على الرصيف ، حتى يكون التعبير حقيقة لامجازا .

ولم يكن لأحد فى ذلك الوقت أن يتساءل عن السند القانونى لإغلاق الجريدة ، ولاعن الأسباب التى أدت إلى إغلاقها . فقد كان إغلاقها أمرا متوقعا . وكانت الأحوال فى ذلك الوقت لاتقتضى مبررا قانونيا ، ولاحتى مجرد صدور قرار بالإغلاق . يكفى أن يصدر الأمر الشفوى فتتحرك القوات ، وتطرد المحررين والعمال ، وتضع الأختام بالشمع الأحمر على الباب . وينتهى الأمر عند ذلك .

وكانت جريدة المصرى هى أول جريدة أيدت الثورة ، من أول لحظة ، ومازلت أذكر أننى كنت فى الإسكندرية ليلة ٢٣ يوليو ، أجلس مع الأستاذ أحمد أبو الفتح رئيس التحرير فى مكتب الصحيفة مع بعض الزملاء الآخرين ، وعند ماهممت بالإنصراف طلب منى أن أبقى لأنه ينتظر أحداثا هامة ، وبالفعل بقيت معه جزءا من الليل بمكتب الجريدة ، والباقى بمسكنه بسيدى جابر ، حتى سمعنا أول بيان للثورة يلقيه أنور السادات ، وبمجرد انتهاء البيان ركبنا السيارة ، وبعد ساعتين وصلنا إلى مقر الجريدة فى القاهرة ، وحاولنا إصدار ملحق نعلن فيه النبأ .

وفى الفترة من ٢٣ يوليو إلى أول مارس ١٩٥٤ ، كان الخط الأساسى للجريدة ، هو تأييد الثورة تأييدا مطلقا ،

ولكن هذا لم يمنعنا من التعبير عن بعض آراء تخالف ما رأته القيادة فى ذلك الوقت . وفى مارس حدثت الأزمة المعروفة بين الرئيس السابق اللواء **محمد نجيب** وبقية أعضاء مجلس قيادة الثورة ، وأدى الخلاف إلى التظاهر بالرضوح لما طلبه محمد نجيب من إلغاء الرقابة على الصحف ، والعودة إلى الديموقراطية والحياة الحزبية ، فأيدت الجريدة موقف محمد نجيب ، وفتحت صدرها لكل من يريد أن يكتب كما يشاء أن يكتب ، ويدعو إلى عودة الجيش إلى ثكناته ، وتولى المدنيين السلطة ، والسماح بتكوين أحزاب ، ووضع دستور جديد ، وانتخاب مجلس برلمانى ، إلى آخر ماطلبته الجماهير الشعبية .

وبالرغم من أن القرار المعلن كان فى جانب تلبية مطالب الشعب فإن جريدة الجمهورية التى كان قد أنشأها جمال عبد الناصر منذ فترة ، وكان يشرف عليها أنور السادات فى ذلك الوقت ، كانت تعبر عن وجهة نظر أخرى مخالفة

للقرارات المعلنة فى مجلس قيادة الثورة . **وفى ٩ مارس ١٩٥٤** نشرت جريدة الجمهورية مقالا طويلا ، قرأته فكتبت ردا عليه ، نشر بالمصرى فى **١٠ مارس ١٩٥٤** بعنوان (دفاع من الشعب) قلت فيه : وهل الشعب فى حاجة إلى دفاع ؟ أجل إن الشعب المصرى المفترى عليه ، فى حاجة إلى دفاع طويل ، وبخاصة فى هذه الأيام ، ففى المقال الافتتاحى لصحيفة الجمهورية الصادرة أمس ، عبارات تستوقف النظر وتستحق التعليق جاء فى هذا المقال :(كان الشعب كله عبيدا لملك طائش ماجن ، وقد طردت الثورة الملك وحررت الشعب .. وكان الشعب أكثر عبودية لسادة الإقطاع وضياع المظالم ، وقد حددت الثورة الملكية وسوت بين الإقطاعيين وغيرهم وقضت على أسباب الظلم . وكان الشعب مسخرا لخدمة حفنة من عبيد الإقطاع ومستغلى الجاه باسم الأحزاب ، وقد ألغت الثورة الأحزاب وقضت على المهرجين السياسيين والوصوليين والإنتهازيين والمحاسيب والأصهار .. كان الشعب تحت حكومة فاسدة ، وقد طهرت الثورة الأداة الحكومية ، وطردت المرتشين والمستغلين ، وتركت الثورة الشعب حرا طليقا ، من كل قيد ، إلا ضميره ومصلحته وحقوق بلاده .)

ذلك بعض ماكتبته الجمهورية فى مقالها الافتتاحى أمس ، وقد يكون بعض هذا الكلام صحيحا لاخلاف عليه ، فالثورة طردت الملك ، وحددت الملكية ، وألغت الاحزاب ، ولكن هل كان الشعب كله عبيدا لملك طائش ماجن ، أو كان هذا الشعب يكافح طغيان الملك ومجونه ، فيصوب الرصاص إلى صدره ويلقى بأفراده فى غياهب السجون ؟ هل كان الشعب عبيدا وهو الذى هتف بسقوط الملك وهو جالس على عرشه يحميه الحرس والبنادق والمدافع السريعة الطلقات ..

لم يكن الشعب كله عبيدا ، فالعبيد هم الذين يرون الظلم ويرضون به ، ويتعرضون للطغيان ويحمونه ، ويشاهدون الفساد ويسترون عليه ، ولم يكن الشعب راضيا بالظلم ولاصامتا للطغيان ، أو متسترا على الفساد . بل كان الشعب فى كل آونة أبيا يكافح وهو أعزل ، حرا يكافح الطغيان بالروح ، كريما يهاجم الفساد بالقول والعمل .. إلى آخر ماجاء بهذا المقال الطويل الذى لايتسع المجال هنا لنشره ، والذى كان بداية لمعركة حامية ، حتى انتهت الأزمة بما يعرفه الكثيرون ، من اعتقال محمد نجيب ، وإعادة فرض الأحكام العرفية ، والرقابة المشددة على الصحف وتلا ذلك تقديم صاحب جريدة المصرى إلى محكمة الثورة ، وصدور حكم المحكمة عليه وفقا لما أملاه عبد الناصر نفسه ، كما شهد بذلك عبد اللطيف البغدادى فى مذكراته .

وتم إغلاق الجريدة ، ثم اعتقلت مع الآلاف ، وبقيت فى المعتقل من عام ١٩٥٤ إلى عام ١٩٥٦ ولاأريد أن استطرد فيما نالنى أثناء ذلك وبعد ذلك من ضروب القهر المادى والنفسى والحرمان من العمل والمنع من السفر فليس هذا وقته ولامكانه ، ولكنها مجرد ذكريات خاطفة أثارها حكم المحكمة الإدارية العليا، بعد ٣١ عاما من إغلاق الجريدة التى كانت تهاجم حكومات الوفد قبل الثورة فى كثير من المناسبات ، رغم أنها كانت تحمل شعاره »:

انتهى .

صحافة تركها الأحرار وبقى فيها العبيد ماذا ننتظر منها ؟ ليس غير ماحدث بالضبط .
الطبل والزمر وإقامة السيرك وملاهيه ليلحقوا الهوان بالفكرة وأصحابها والكذب والغش والنفاق والدجل ، وكل يحاول أن يخدم السلطان وأن يلعق حذاء أقل خادم عنده .

والسلطان عظيم مهاب يدوس الجميع بالأقدام ، ويمشى على تاريخهم مستهزئا ، ولو استطاع مشى على الأهرام .

الفصل السادس عشر

الخروج من الحربى إلى أبى زعبل

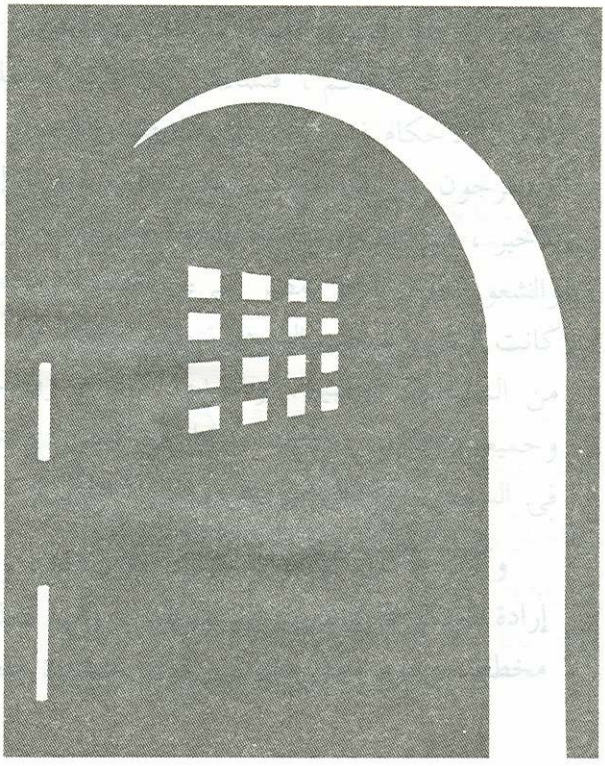

نادوا علينا فى صباح يوم حار من أيام شهر مايو عام ١٩٦٦ ، وعرضونا على الطبيب للكشف الطبى ، وكان يسألنا :

ـــ هل هناك إصابات بالغة من التعذيب ؟

وكان الجميع يجيب بـ « لا »، رغم شدة الإصابات وكثرة الجروح ، فقد سرت شائعة مؤداها أن المصاب لن يفرج عنه قبل أن تلتئم جراحاته ، وأغلب المعتقلين مصاب بجروح تحتاج إلى سنوات للالتئام . وقال واحد ساخرا :

ـــ إن أخذوا بهذه الحكمة فلن يفرجوا عنا فى هذا القرن .

وانتهى الكشف الطبى وعدنا إلى الزنازين نتقلب مع الظنون . فقد انتهت المحاكمات ، وصدرت الأحكام ، وبقى من لم يحاكم ، فتساءلنا ترى ماذا سيفعلون ؟ هل ينفذون الأحكام فيمن صدرت ضدهم ويفرجون عن الباقين أم يفرجون عن الجميع ؟ وكان الناس يميلون إلى الفرض الأخير ، فهى قضية سياسية ملفقة ، وقد أدت الغرض منها ، والشعور العام داخل مصر ملىء بالغضب والسخط ، فقد كانت النذر والسحب السوداء تتجمع ، فماذا لو أحدثوا شيئا من المصالحة الوطنية ، وضمدوا الجراح وواسوا الناس ، وجميعهم مصاب ، فهناك من قتل فى اليمن ، وهناك من قتل فى السجن ، وهناك من بقى رهن الاعتقال ؟

وكان حكماء الإخوان يقولون بغير هذا ، ويؤكدون أن إرادة الحكومة المصرية غير مستقلة ، وأنها تنفذ دورها فى مخطط مرسوم متفق عليه بين قوى متضادة متصارعة ، قد

اتفقت جميعها على إنهاك الشرق الإسلامى والقضاء على أى بذرة للإصلاح ، وأدواتهم فى هذا حكومات عميلة ، لايمكنها البقاء فى مناخ حُر ، فالقمع والضرب والقهر والاعتقال هى الأدوات الوحيدة للحياة ، وهم يقومون بدورهم فى المخطط ليس تنفيذا لما يراد منهم فحسب ، ولكن لأن فى هذا بقاءهم ووجودهم .

وكان حكماء الإخوان يبشرون بمحنة قاسية واعتقال طويل ، ويتوجسون من تحرك لإسرائيل ويقول لهم قائل :

ـــ وهل تتحرك إسرائيل ؟

ويجيب الحكماء :

ـــ كل ما يحدث فى الشرق الإسلامى وفى مصر بصفة خاصة ترتيبات محددة مدروسة حتى تصبح إسرائيل أعظم دولة فى المنطقة .

ـــ وهل يدرك حكام مصر هذا ؟

ـــ ولماذا لايدركون ؟ هم يعلمون جيدا ماذا يفعلون .

ونعود إلى أفكارنا نجترها فى صمت هو أبلغ من الكلام .

وفى صباح يوم آخر كان وداعٌ قصيرٌ حارٌ مؤثرٌ بين من نادوا عليهم للخروج وبين من بقى لتنفيذ الأحكام .

وغادرنا السجن الحربى وكنا خمسة أشخاص أذكر منهم أحمد جبريل ، وأحمد جاد وأحمد توفيق وكاتب هذه السطور وأحمد (خامس)لا أذكره، فقد كانوا يقومون بترحيلنا حسب الحروف الأبجدية .

وأخذتنا سيارة الترحيلات إلى معتقل القلعة السياسى ، وكنا نظن أننا ذاهبون إلى البيوت . وقالوا لنا:أيام تتهيئون فيها ثم تذهبون إلى بيوتكم .

وكان خمستنا فى سعادة وسرور لم تنغصه غير ذكريات حزينة عن الذين تركناهم فى معترك العذاب بالسجن الحربى . وكان عزاؤنا أنهم سيذهبون بهم إلى الليمانات لتكسير الأحجار فى وهج الشمس بعيدا عن الحربى .

وجلس خمستنا فى تلك الزنزانة الواقعة فى مدخل البوابة نترقب ونتحدث . ويدور الحديث عن المحكوم عليهم بالموت ، أولئك المجتمعون فى الحربى . ويدور الحديث عن الذين ماتوا أمام أعيننا ضربا بالسياط . ويقول واحد :

ـــ لقد رأيت بعينى الشهيد محمد عواد وهم يقتلونه عند الفسقية .

وتذكرت المرحوم عبد الفتاح اسماعيل وكنت قد التقيت به خلسة فى دورة المياه بالحربى . وقال لى :

ـــ لقد أستشهد أمامى أحمد اسماعيل الفيومى دون أن ينطق بكلمة واحدة السجن هو مدرسة المسلمين ، واختبار المؤمنين ، وشهادة الصّادقين .

ويقول قائل :

ـــ ولكن الأمور استبانت وعرفوا أن ليس هناك مؤامرة ، وأن الجميع أبرياء وكوننا نجتمع فى عرس أو عزاء ليس معناه مناهضة الدولة .

ويرد عليه الآخر ساخرا :

ـــ وهل نحن حقا لا نناهض الدولة .

ويرد عليه معتذرا :

ـــ ليس هناك من الأعمال ما يمكن أن نحاسب عليه .

ويقول أكبرنا سنا مستسلما :

ـــ هى حسابات دولية يقوم على تخطيطها اليهود والشيوعيون ، ويأمرون هؤلاء الأقزام بتنفيذها .

ويطرق باب الزنزانة ويدخل عسكرى شرطة بشوشا لايسب ولا يلعن ويقدم لنا شيئا من الجبن والعسل الأسود والخبز المعجون بالتراب .

مكثنا ثلاثة أيام فى معتقل القلعة ، استبطأنا فيها الإفراج ، وكنا نسأل المخبرين ، فيوصوننا بالصبر ، ويؤكدون أن كشف الإفراج قد ذهب للسيد وزير الداخلية لاعتماده وهو معروض عليه فى البريد ، وقد ذهب الكثير ولم يبق إلا القليل ، فنجد الكلام مقنعا ومعقولا فنعود إلى الصلاة والأحاديث المختلفة ، ويكفى أن ليس هناك ضرب أو عذاب .

وفى نهاية الأيام الثلاثة دخل علينا مخبر سمين كريه الوجه ونادى على أسمائنا وطلب منا تسليم العهدة التى أخذناها يوم جئنا ، البطانية والملعقة والقروانة وطبق العسل الصغير وبدلة الخيش التى لازمتنا ، حيث نتركها فى مكان ونتسلمها فى آخر .

وسأل واحد منا عظيم المخبرين :

ـــ ما القصة ؟ هل هو الإفراج حقا ؟

وأجاب الرجل بوجهه الثعبانى وسحنته الكريهة التى بدت جميلة فى أعيننا :

ـــ وهل تشكون فى هذا ؟ إلى لاظوغلى فتكتبون إقرارا بعدم العمل فى السياسة ، ثم تأخذون درسا من سيادة المدير ، وتذهبون إلى بيوتكم معززين مكرمين بسيارات المباحث كما جاءت بكم .

* * *

وعلى باب معتقل أبى زعبل السياسى أنزلونا ، وخيبة الأمل تملأ وجوهنا المتعبة .

وقال مخبر فى عدم اهتمام :

ـــ لم يوقع سيادة الوزير بالاعتماد على كشف الإفراج .

وتسلمونا فى المعتقل بنفس الاجراءات التى نسلم بها فى كل معتقل نذهب إليه ، وسعدنا بوجوه حبيبة قد تركناها منذ زمن ، عندما كان الجميع يعذبون فى (المحمصة) فى صيف عام ١٩٦٥ تحت إشراف العميد أحمد رشدى أثناء المباراة الساخنة التى كانت بينه وبين العقيد شمس بدران .

قد ذهب العذاب والتأمت الجراح ، وارتدى الجميع ثيابا بيضاء من خيش المعتقل ، وعلت رءوسهم « طاقية » كريهة المنظر قد وصفتها من قبل .

سلمونا العهدة كالعادة ووزعونا على العنابر .

وقبل أن أذهب إلى العنبر أريد أن أذكركم بالمكان .

سور له باب ، يفضى إلى فناء يقبع فيه مبنى المعتقل ، حيث باب آخر من الحديد لا يفتح إلا بإذن وحساب وتحت إشراف مسئول . وتدخل فتجد غرفة على اليمين ، وأخرى على اليسار قد أعدت لقائد المعتقل وسلم إلى اليمين وآخر

إلى اليسار ، يفضيان إلى أدوار المعتقل الثلاثة وفى الدور الأول تقوم زنازين يمين وزنازين شمال ، وموقعهما مشتق من اسمهما ، وتتناثر غرف الإدارة والمستشفى والمخازن على الجانبين . والقفص الحديدى يشمل القاعة الداخلية ، حيث تبدو كقفص القرود .

وفى الدور الثانى ستة عنابر على اليمين ، من عنبر واحد إلى عنبر ستة . وعلى اليسار من عنبر سبعة إلى عنبر رقم ١٢.

والدور الثالث كذلك .

والعنبر يتسع لعشرة ، وكان فيه عندما دخلته ستون .

وصنفوا المعتقلين فى أبى زعبل إلى قسمين ، الذين تناولتهم التحقيقات وهؤلاء يقيمون فى الدور الثانى ، والدور الثالث يقيم فيه الإخوان الذين لم تشملهم التحقيقات ، وتم جمعهم حسب قرار رئيس الجمهورية فى ١٩٦٥/٩/٦ باعتقال كل من سبق اعتقاله من الإخوان المسلمين .

وأودعونى عنبر خمسة فى الدور الثانى .

ودخلت العنبر مذعورا فما زالت أصداء التعذيب تطن فى أذنى ، وتضغط على مخيلتى . ولكنى وجدت المكان مختلفا .

والتف أهل العنبر حولى ، وقدموا لى كوبا من الشاى فى علبة (سالمون) وقد نظفت وأعدت لهذا الغرض ، وكانت دهشتى بالشاى عظيمة ، وفرحتى به أكبر ، وبعد أن شربته سألت :

ـــ هل يمكن كوبا آخر ؟

وأتوا إلى بكوب آخر ، ورأيت الحلاوة الطحينية كثيرة فى الأفواه ، وفى أيديهم ، ولاتكاد تساوى شيئا ، وجاءونى بها وأكلت منها حتى شبعت . حياة تختلف تماما عن تلك التى كنا نحياها فى الحربى .

وانهالت الأسئلة من كل جانب . وصرت أقص عليهم ما جرى ويجرى فى السجن الحربى ، والكل صامت كأن على رأسه الطير ، فقد كنا أول من يدخل إلى أبى زعبل من السجن الحربى .

وجاء دورى فى السؤال :

ـــ ما الأحوال هنا ؟

ودارت عيناى فى الوجوه التى فاجأها سؤالى وأجاب واحد :

ـــ سوف ترى بنفسك كل شىء على مر الشهور والأعوام .

وذهلت أيمكن أن تكون هناك شهور وأعوام ؟ ليس من إفراج إذن . وهؤلاء المخضرمون يعلمون كل شىء فقد مروا بمحن عديدة من قبل .

وكانت المعاملة دون سب أو ضرب تحتاج إلى تدريب ، فقد صار المعتقل للغرض الذى أعد له ، اعتقال صارم قاس محكوم بلوائح شديدة ، دون تعذيب بالضرب أو الكى أو التعليق .

وعندما أقول تدربت فهى كلمة دقيقة ، فالمعاملة الخالية من التعذيب والسب تحتاج إلى مران وممارسة ، فردود أفعالنا تنتمى إلى عالم السجن الحربى ، حيث كان العذاب سلوكا

يوميا لحظيا نشعره ونعيشه فى كل لحظة من لحظات صحونا ، أول شىء نفتح عليه أعيننا فى الصباح ، وآخر شىء نهرب منه عندما ننام .

وكانت تجربة الحربى فريدة من نوعها ، فقد اجتمع هناك طوائف من جهات شتى ، قد جمع بينهم خطر الموت المتربص فى كل زاوية ، والجوع والخوف ، فهم يتماسكون ويتآزرون رغم اختلاف أفكارهم ورؤاهم ، لأنهم فى نسيج واحد وفى عروة لا تنفصم .

كانت المجموعات التى يتشكل منها سكان الدور الثانى فى المعتقل خليطاً من الإخوان المسلمين الذين أمضوا عشر سنوات فى السجون دون أن يؤيدوا عبد الناصر ، ومن بعض الذين أيدوه ، والجميع كما قلت قد ذُكرت أسماؤهم فى التحقيقات ، ومع هؤلاء عدد من الذين اعتقلوا عام ١٩٥٤ ولم يقدموا إلى المحاكمة آنذاك ، ثم الجيل الجديد فى قضايا الإخوان وعلى رأسهم الذين يفدون من السجن الحربى تباعا .

وكان قدامى المعتقلين والمسجونون المقيمون فى أبى زعبل أصحاب التجارب السابقة المريرة ينظرون فى توجس وقلق إلى المعتقلين القادمين تباعا من الحربى ، فهم يناورون الحكومة مناورة محكمة ، مدارها أن جماعة الإخوان المسلمين قد انتهت ، والموجودون أفراد عاديون لا يتميزون إلا بتاريخ قديم يريدون من الحكومة أن تنساه ، وفى سبيل هذا يتظاهرون بأشياء كثيرة لا يعتقدونها ، وبخبرتهم الطويلة استطاعوا أن يقدموا أداء رائعا فى هذا المضمار بتفاهم لم تكتب شروطه ولم يحدث بشأنه اتفاق .

وكانوا يسلكون وفق هذا وبالنفوس ما بها من فكر راسخ مستقر لا يتغير ولا يتبدل ، ومع توالى الأيام والأحداث أكدت لهم الظروف مدى صحة نظريتهم ، وحكمتهم فى هذه التصرفات ، وكان تخوفهم شديدا من المعتقلين الجدد ، فهم لن يمكنوهم من خداع الحكومة بالقدر المناسب الذى يسمح بالإفراج عنهم .

خبرة طويلة فى عالم السجون والمعتقلات ، وعلم بأساليب الحكومة ، ووعى بالإعصار العاتى المدمر ، وانحناء الرءوس قليلا سوف يجعل كل شىء يمر بسلام ، ولاشك أن خوفهم كان شديدا من هؤلاء الجدد فقد يفسدون المخطط الإخوانى الذى بدأ بغير إعلان ، ولم يكن من السهل أن تنقل خبرة سياسية لها عراقة وتجربة إلى شباب حديثى عهد بمثل هذه المناورات فى وقت يسير . ويبدو أن الإخوان قد أملت عليهم الظروف استخدام « التقية » فى التعامل مع القوى العاتية المناوئة لهم ، ولعلهم كانوا مجبورين على هذا ، فهناك عدو شرس لايقبل منهم بغير التنازل عن أفكارهم وأهدافهم ، ولم يكن هذا فى وسعهم ، فليس أمامهم غير التظاهر بالاستجابة ، وبنفوسهم مابها من اعتقاد .

هذه هى ملاحظاتى فى تلك الأيام بمعتقل أبى زعبل السياسى .

وقد أكدت الأحداث التى توالت صحة هذه الملاحظات .

وبعثرت المباحث الوافدين الجدد فى العنابر المكتظة بالإخوان ، وبدأت فى تنفيذ برامجها الخاصة بغسيل المخ والتخلى عن الأفكار ، ومن الخطوات المطلوبة أن يعيش الستون أو السبعون المجتمعون فى العنبر حياة انفرادية ، تحت ضغط التخويف بعدم الإفراج ، أو الإرسال إلى معتقل القلعة

للتعذيب من جديد . فعلى كل واحد فى العنبر أن يعيش وحده ، يأكل وحده ، ويصلى وحده ، ويفكر وحده ، ولا يتعامل مع أحد ، وإن أراد أن ينسجم مع إرادة الحكومة فعليه أن يثير المشاحنات والمشاكل والمشاجرات مع من فى العنبر من معتقلين ، وكان هذا أمراً بالغ الصعوبة ، بل هو فى حكم المستحيل .

كان العنبر مغلقا على من فيه طول اليوم والليلة ، ومن فيه يجلسون متلاصقين بالنهار، وينامون كذلك ، فكيف يتأتى أن يعيش كل فرد وحده ؟

الصلاة فى جماعة أمر لا مفر منه .

الأكل فى مجموعات شكل تمليه الظروف .

وبعد ذلك ، ليس غير المصحف الذى دخل للناس خلسة من رواء القضبان . لاكتب لا صحف لا أى شىء .

ليس هناك غير حفظ القرآن ، واحد يقرأ ، والآخر يراجع عليه ، وينبهه إلى الخطأ إن وجد .

حياة جماعية يصعب حلها ، فالآخرون يحيطون بالآخرين ، ولا يتركون لفرد فرصة للوحدة أو الانفراد ،فالكل يعيشون معا ولا يفترقون إلا ساعة النوم ، ولا تتحقق عزلة إلا فى دورة المياه أو بالغيبوبة ، ويبدأ الاندماج مع الصحو واليقظة ، ومع أذان الفجر يبدأ المعتقلون يومهم الجماعى الطويل .

* * *

وعنبر خمسة شأنه كسائر عنابر الدور الثانى من الإخوان بتصنيفاتهم المختلفة ، والجميع يتظاهرون بالانسجام مع مخططات الحكومة المعلنة والتى تهدف إلى القضاء على

روح الجماعة بين هذا الجمع من الناس . وجميع الأحاديث السرية الخفية التى تدور همسا بين الأفراد وفى غفلة عن الرقباء،تؤكد أن هذه الجماعة لن تموت ، وكان من العبث محاولة نزع أفكار قد استقرت فى رءوس أصحابها عشرات السنين ، وصارت تمثل جهادهم وكيانهم ، مهما كانت بشاعة الاعتقال والتعذيب الوحشى ، ربما يتظاهرون بالموافقة والاستجابة ، ولكن ليس أكثر من التظاهر فقط .

كانت الحكومة تعمل غسيلا لمخ المعتقلين فى مخطط لم ينجح ، فهم لم يكونوا يستخدمون ذلك المنهج بالدقة والعلمية المطلوبة لتحقيق الأهداف ، ويرجع ذلك لأسباب كثيرة منها جهل القائمين عليه ، الجهل بصفة عامة ، وعدم الإخلاص ، وعدم الأمانة للنظام ، وهى صفات غرسها فيهم النظام الموجود ، وكان إخلاصهم مرتبطاً بالرواتب التى يقبضونها ، وبالمزايا التى يسرقونها ، وهى قليل فى نظرهم إلى جانب ما يتصورون أنه مطلوب منهم ، فهم « الفتوات » الذين يحملون الهراوات لحماية « المعلم » ، وهم الذين يلفقون القضايا لأعدائه ، وبغيرهم لايستطيع الحياة ، وفى سبيل الوجود فقدوا المروءة والشرف والمثل الأعلى ، ويفرح « الزعيم » عندما تصله الأخبار عن سفالاتهم وسرقاتهم فهى السبيل الوحيد للارتباط به والمحافظة عليه .

حتى الأفراد الأكثر تقدما فى المنهج ، والذين يعاونون الحكومة فى تحقيق أهدافها ، كانوا يفيضون غلا وغيظا ، ويصرخون فى كثير من الأحيان أن الله سوف ينتقم منها إنتقاما مروعا فى يوم ما .

وإذا كانت الجريمة محرمة على الأفراد لحماية المجتمع فهى محرمة من باب أولى على الحكومة ، ولكن المتأمل يراها قد إرتكبت كافة الجرائم التى يعاقب عليها قانون العقوبات ، الاغتصاب، القتل ، السرقة ، التعذيب ، التجويع ، السجن والاعتقال بدون ذنب .

سرق الحكام وضباطهم الأحرار الأموال المصادرة والجواهر الكريمة والتحف النادرة ، وملئوا بها بيوتهم ، وتزينت بالمال الحرام نساؤهم ، وسكنوا مساكن السابقين وقصورهم من الذين ظلموا فى زعمهم . وكان السيد على صبرى يسكن قصرا مصادرا قيمته الإيجارية ـــ هو الذى حددها ـــ ستة جنيهات ، ويقدم فواتيرا شهرية للإصلاحات قيمتها مائة ضعف ، والله يضاعف لمن يشاء ، ثم يركب سيارته التى لم يخلق مثلها فى البلاد إلى معهد « إعداد القياديين فى حلوان » حتى يحاضر عن الاشتراكية ، ويتكلم عن الكفاية والعدل .

و« الزعيم الملهم » يسر من الرخاء الذى تعيشه البلاد عندما تقوم شركة مقاولات ببناء «فيلات» لكريماته ، وتخبره أن تكلفة الفيلا لا تزيد عن ثلاثة آلاف جنيه ، رغم أنها مقامة فى مساحة فدان من أرض مصر الجديدة ، ويدفع الزعيم ثمنها بالتقسيط المريح من مرتبه .

ولصوص صغار يخفون الجواهر فى ثيابهم أثناء الجرد .

كانت هذه هى المثل العليا السائدة فى المجتمع ، مجموعة ساعدتها القوة والقدرة على سرقة بلد بأكمله ، ألا يدفع هذا حراسهم وفتواتهم أن يمارسوا جميع الجرائم ، وأن يملئوا بيوتهم وجيوبهم من المال الحرام ؟

وكل يسرق على قدر قيمته ، ولم يكن المعتقلون يجهلون حقيقة جلاديهم ، وكانوا يضمرون لهم احتقارا وازدراء وفهما لطبيعتهم الإجرامية ، فيسايرونهم فيما يريدون ويدركون أن فرج الله قريب .

ورغم كل ما جرى فى المعتقل من أمور غريبة ومثيرة إلا أنه ظل مدرسة للترابط والوحدة والتفكير فى الأخطاء ، وتعديل الخطط وكيفية تحقيق الأهداف .

واستمرت اللعبة قدما ، ببراعة من جانب المعتقلين ، وبجهل وغشم من ناحية المستبدين .

والقرآن الكريم يتلى فى كل ركن وزاوية من زوايا المعتقل العالى الجدران .

* * *

كان الأستاذ محمد ماضى إماما للعنبر ، يستيقظ للتهجد فى جوف الليل حتى يحين موعد الفجر فيؤذن للصلاة ، وتقف الصفوف خلفه ويصلى بالناس .

وكان يصر على القنوت والدعاء على الظالمين دعاء حارا من قلب مرهف ووجدان ملتهب ، يستشعر الظلم ويفهم معناه ، ويرد عليه المعتقلون فى حرارة عقب كل دعاء ، آمين .

وجلس أحد العقلاء إلى الأستاذ ماضى يوما وقال له :

ـــ ياأستاذ ماضى ، مالك والظالمين ، ألا ندعهم فى حالهم ماداموا قد تركونا فى حالنا .

ويرد عليه الأستاذ ماضى محتدا :

ـــ وهل تركونا فى حالنا ؟

ويتطور الحوار حتى يكاد أن يفصح عن هوية الظالمين ومن يكونون .

وهنا يتوقف الحوار ليعود بعد شهر أو شهر ونصف على الأكثر .

وتقضى الصلاة وينصرف الناس للنوم إلا عددا قليلا يقرءون القرآن فى دوى خافت الصوت يطوف بأركان العنبر فى غاشية من ترديد كأنه الحلم أو أمل بعيد .

ثم يمتلىء العنبر بالضياء مع إشراقة الشمس وينهض الجميع ، ويبدءون فى خلع ملابسهم الخارجية للتخلص مما بها من « قمل » .

وكنت تسمع الأرقام تتردد من هنا وهناك ، خمسة ، سبعة ، عشرة ومن آخر العنبر ينطلق صوت :

ـــ رقم قياسى .. خمسة عشر .

ثم تبدأ المجموعات فى الاستعداد لطعام الإفطار .

والإفطار مكون من الجبن القريش ومن العسل الأسود يوزع مرة كل عشرة أيام أو أكثر ، ويودع فى دورة المياه حيث يكون فى متناول المعتقلين عبر « مسئول » قد تم اختياره بشكل لا يتذكره أحد ، فهو لم ينتخب ، ولم يعين ، بل وجده الجميع هكذا .

وكان « المسئول » عن العنبر إداريا هو الأستاذ محمد أحمد ، فهو المتصرف فى شئون المعيشة بوجه عام ، يحدد علب الحلاوة الطحينية المطلوب شراؤها عندما يعلنون عن

ذلك ، وهو الذى يحاسب على عدد أكواب الشاى التى تصرف مرة كل صباح وأخرى بعد العصر ، وتلك الثانية قد سمحوا بها بعد جهاد مرير استمر شهورا . وهو الذى يفض منازعات الحدود ، فيقوم بقياس العنبر لتحديد السنتيمترات المتنازع عليها ، فقد كان من حق كل معتقل سبعة وثلاثون سنتيمترا عرضا فى طول لايزيد عن مائة وخمسين سنتيمترا ، فالطويل يضع رجليه بين رءوس جيرانه عندما ينام .

وكان محمد أحمد حكيما عاقلا فى تصريفه للأمور بالعنبر .

وينقسم الناس فى الطعام إلى مجموعات حسب المشارب والمعرفة وطبيعة العلاقات بينهم ، فمجموعة مكونة من خمسة وأخرى من ثلاثة أو أربعة ، ونادرا ما تجد واحدا يأكل وحده .

ويتولى واحد من المجموعة إعداد وجبة الإفطار من مدخرات الأفراد من الجبن القريش والعسل الأسود وأحيانا بعض الفول الأسود ، وهو ليس بالمدمس ، وأحيانا عسل أبيض أو جبن « نستو » أو أى شىء يأتينا عن طريق « الكانتين » وندفع ثمنه .

وتتحلق الحلقات للإفطار ، ويفرغون منه وينتظرون الشاى .

ووقت توزيع الشاى من الأوقات المبهجة فى ذلك الزمن ، وكان عبد العظيم دوح هو الذى يقوم على توزيعه عبر العنابر ، وبعد أن أفرج عنه خلفه محمد عليوه ، وكانت رؤيته وهو قادم وفى يده إبريق الشاى الكبير تجعل المزاج يعتدل وينبسط ، والكل واقف فى طابور طويل وفى يده الكوب الصفيحى الفارغ المصنوع من علب (السلمون) المحفوظ ليملأه له محمد عليوه بالشاى ، ثم الذى يليه وهكذا .

وكان بعض الأثرياء يشتركون فى أكثر من كوب فيملئون (الترموس) بالشاى ويتناولونه خلسة أثناء النهار .

وقد يتأخر الشاى بعض الوقت لأسباب فنية ، فتجد جمعاً من المعتقلين وقد وقفوا على الأبواب الحديدية ينقرون عليها بالأكواب الصفيحية ، وتنبعث الضجة من أركان المعتقل معلنة عن « القريفة » وقلة المزاج .

وينتهى شرب الشاى ، ويعكف الناس على ما ينهضون إليه من نشاط وأهم هذا النشاط هو غسيل الملابس فى الساعات القليلة التى يسمحون فيها بالمياه ، وذلك بعد أن يأخذ المسئول الحكومى الرشوة اللازمة وهى غالبا ما تتغير زيادة بين اليوم والآخر .

ويقف أهل العنبر فى صف وكل ممسك بدلو من البلاستك مختلف ألوانه ، وقد نقع ملابسه الخيشية فى المنظف ، وينتظر دوره فى الدخول إلى دورة المياه الصغيرة ، وتنقطع المياه بعد ساعة ، وينقطع الصف ليتصل بعد ساعة أخرى ، وربما فى اليوم التالى .

وكنت أغسل ملابسى فى الليل ، ففيه أملك المكان لساعات طويلة ، وبعد فترة من الوقت صار طابور الليل أطول من طابور النهار ، واحتج زعماء العنبر وشيوخه الذين ينامون عقب صلاة العشاء ، فهم يريدون الراحة تمهيدا لعبادة الليل .

وعند الظهر يأتون بوعائين اسم الواحد منهما (كانتين) ، قد امتلأ أحدهما بالفول وبالسوس والحصى والتراب وبعض الحشرات ، والآخر أرزا مطبوخا بدود رفيع ، فكنا نملأ

« القروانة » به ثم نغمرها بالماء إن وجد فيسبح الدود ، ومن ثم يمكن التخلص من معظمه ، أو تتعذر المياه فيأتى حكم الاضطرار .

ويأتون (بالحمبلوط) مرتين فى الأسبوع وهو نوع من الخضروات لم يعرفه أحد منا فأطلقوا عليه هذا الاسم ، ويأتون به مرة أسود وأخرى أحمر . ومن كان معه مال ، وهو يأتى من الأهل عن طريق المباحث ، فيمكنه شراء حصة مما يباع فى « كانتين» المعتقل .

وكان مايباع فيه يتوقف على الصفقات التى يمكن أن تعقدها الإدارة مع التجار والموردين ، فقد جاءوا مرة بكمية من البسكوت تكفى لإطعام جيش وظل الناس يشترون بسكوتا حتى ينتهى ، ومن ثم يعقدون صفقة أخرى لصنف آخر ، فهكذا كانت السياسة .

ولايجوز أن يقدم شخص طعاما هدية لآخر ، فالتكافل ممنوع والويل لمن يضبط ، ولكنه كان يتم فى الخفاء وفى تكتم شديد .

وكانت المباحث تحظر أن يشارك أحد آخرين فى طعامه الخاص ، ولم ينجحوا فى هذا لطبيعة المكان والزمان .

وكان نادرا ما يأكل إنسان وحده ، وإن حدث فيأتى ذلك من الفقر الشديد أو الثراء الشديد أيضا .

ولله فى خلقه شئون .

وكان كل شخص يعيش داخل العنبر على بطانية من الصوف قد طويت بعرض سبعة وثلاثين سنتيمترا ، وهو كما وضحنا العرض الذى يسمح للمكان باستيعاب ذلك العدد الكبير الذى حشر فيه ، وينام الناس فى ثلاثة صفوف تعترض

طول العنبر ، وعلى الحوائط قد علقت أقفاص الجريد التى تستعمل فى نقل الفاكهة ، ولكل مجموعة قفصان أو ثلاثة حسب عددها ، وفى هذه الأقفاص تحتفظ المجموعة بكافة مقتنياتها الحياتية ، فالحلاوة الطحينية ، والعجوة والبسكوت وربما علبة من عسل النحل ، وبعض الجبن حسب ما يأتى ويسمح بالشراء .

وكان البعض يمزق جزءا من الملابس ليستر ما بالأقفاص فلا يرى ما بها من مظاهر الغنى والثراء الممثلة فى عدد علب الحلوى وعدد باكوات العجوة ، وتقاس مكانة المجموعة وعظمة أفرادها بعدد الأقفاص التى تقتنيها .

وليست هناك ملاحظة ذات بال على العشاء فهو شبيه بالغداء ، المجموعات تأكل مع بعضها حسب النظام الذى يضعه رئيس المجموعة . وكان مسئولا عن دوام هذه المواد الطعامية حتى تأتى الكانتين بضاعة جديدة .

وكانت فترات الشراء تتباعد ، ولا يعلم موعد الإعلان عن أطعمة جديدة ، ويبدأ تقتير رئيس المجموعة على زملائه فى العجوة والحلاوة الطحينية وغيرهما ، ويزداد التقتير مع طول المدة ، وقد تنفد هذه المواد قبل أن يأتى غيرها ، ويكون الطعام هو الرسمى الردىء الضار بالصحة المليء بالحشرات والقذارة والميكروبات .

وأحيانا تأتى البضائع فى منتصف فترة التقتير ، ويعلن أن البيع سيكون من الغد ، وفى هذه الليلة يتحول الطعام إلى مهرجان ، فيسرف فى توزيع الحلوى والعجوة والعسل الأبيض ، ويكون الطعام فى هذه الليلة بلا حساب .

وكانت بضائع « الكانتين » تقتصر على المعلبات أو ما

يعباً ، وقد جاهد الناس جهادا كبيرا وتكلموا مع المسئولين كثيرا من أجل السماح لهم بالخضروات الطازجة مثل الطماطم والجرجير والجزر والفلفل الأخضر ، واستعانوا بالأطباء ، واستشهدوا بحالات المرض التى انتشرت نتيجة لنقص الفيتامينات ، ولعلهم لم يسمحوا لنا بشرائها على حسابنا إلا فى الأسابيع الأخيرة قبل مغادرتنا لمعتقل أبى زعبل السياسى .

* * *

كان فى عنبر خمسة فى ذلك الوقت حوالى سبعين أذكر منهم :

الأستاذ محمد ماضى ، الأستاذ أحمد عادل كمال ، الشيخ محمد المطراوى ، المرحوم ابراهيم عزت ، المرحوم عبد القادر هلال ، الأستاذ سمير الهضيبى ، الدكتور فتحى عجوة ، المرحوم أحمد قتة ، الاستاذ عبد الفتاح ضرغام ، الأستاذ عثمان محمد ابراهيم ، الأستاذ حسن مراد ، الأستاذ محمد أحمد ، وكان يلقب بالمدير فهو همزة الوصل بين العنبروالإدارة الذاتية من المعتقلين ، وكانت تقوم على تنظيم شئون الحياة فى هذا المكان العجيب . فلم نكن نرى أحدا من إدارة المعتقل الرسمية ، والقائمين على الإدارة والخدمة من قدامى المعتقلين .

وكان معنا فى عنبر خمسة الأستاذ عبد الرحمن حسب الله ، وهو أحد ستة أشخاص تكونت منهم جماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٢٨ .

ونحاول أن نتذكر الآخرين :

محمد السودانى ، عبد الرحمن عبد التواب ، حسين

الحنفى ، عبد الحنّان الفلاح الذى كان يطربنا بغنائه أحيانا بصوته الجميل القادم من الجنة ، عندما كان يغنى أشعار المرحوم ابراهيم عزت .

وكان معنا أيضا الأستاذ جمال فوزى شاعر الإخوان بأدبه الجم وخلقه الرفيع وحديثه العذب الدمث ، وصبره على الأذى والسجن فى وداعة وهدوء . والحاج حسن حافظ الفقى الذى كان يملأ العنبر بجو من البهجة والمرح ، فقد كان عصبيا شديد التوتر طول الوقت ، على طيبة قلبه وسلامة صدره ، وكان كثيرا ما يتشاجر مع المرحوم ابراهيم عزت حول الماء.

فقد كان احتياطى الماء صفيحتين مكشوفتين فى دورة المياه ، وكان هذا الرصيد صيفا وشتاء للسبعين فى قضاء حوائجهم من طهارة وطعام وغسل للثياب والوضوء والاستحمام وكل شىء عندما تنقطع المياه.

وكان المرحوم ابراهيم عزت يحب أن يسبغ الوضوء على المكاره ، وكان يبالغ فى التطهر ، فينتظره الحاج حسن حافظ على باب الدورة ويشاجره عندما يخرج :

– ليس من المعقول أن تتطهر وحدك بنصف صفيحة ، والباقى لهذا الجمع الغفير ، هذا ليس من الإسلام فى شىء واسأل الحاج فريد عراقى.

والحاج فريد عراقى هو زعيم جماعة التبليغ فى مصر ، والتى انبثقت عن جماعة الإخوان المسلمين فى أيام القهر قبل الاعتقال ، وكان المرحوم ابراهيم عزت من أقطابها البارزين.

ويضج العنبر بالضحك ، ويتدخلون لفض المشاجرة ، وكانت دائما من طرف واحد ، فقد كان المرحوم ابراهيم عزت شديد الحياء لا يسمع له صوت ، ويكتفى بابتسامته العذبة

المتسامحة ، ويستنجد بالشيخ المطراوى ليخلصه من حسن حافظ . وكان معنا حامد ابراهيم شكل ، وهو اختصاصى فى الأخبار السيئة ، ويسرف فى التشاؤم ، وكان يضفى على المكان جوا كئيبا من التوتر والضيق ، فأطلق عليه حسن مراد اسم (البلاكوسى) ، وهو اسم لحانوتى شهير فى العباسية فى ذلك الوقت .

وكان معنا الأستاذ حسن اسماعيل وسليم عفيفى والمرحوم جمعة وعم سيد وفا الذى كان يقطر سخرية ومرارة مما كان يجرى حوله ، ويتندر عن حياته والسجون الكثيرة التى يخرج منها ليدخل فيها مرة ثانية فى دوامة لا تنتهى .

وكان معنا الحاج محمد المخ من عرب جهينة ، وكان رجلا طيب القلب ، نقى الوجدان ، لم يفقد لهجته التى قدم بها قبل أكثر من خمسة عشر عاما متنقلا بين السجون وبين المعتقلات .

ومن طرائفه أن المباحث عبر الإدارة أخبرتنا على ضرورة أن يقف كل واحد منا ويقارن بين الحياة قبل الثورة وبعد الثورة من خلال عمله الذى كان يقوم به ، وقد حدث هذا فى مرحلة ما من مراحل إقامتنا فى أبى زعبل ، فيقف المعتقل الذى كان يعمل مثلا فى مصلحة الطب البيطرى ، ويقارن بين « البيطرة » فى العهدين ، وكانت تخصص ساعة يوميا لهذا الهراء بعد صلاة العشاء .

وعندما جاء دور الحاج محمد المخ وقف الرجل فى حيرة بعد الصلاة وقال :

– يا جماعة اعذرونى لا أستطيع أن أفضى لكم بشىء .

– لماذ ؟

– لأننى سجنت عندما قامت الثورة ، ولم أخرج من سجونها ومعتقلاتها حتى اللحظة التى أقف فيها أمامكم .

ويقول له أحد الخبثاء بصوت عال :

– احك لنا إذن عن الفرق بين السجون والمعتقلات أيام الملك وفى عهد الثورة المباركة .

ويجيب الرجل فى عفوية وبساطة وظرف بالغ :

– ولكنى لم أسجن ولم أعتقل إلا فى عهد الثورة المباركة .

وكان معنا عبقرى الكيمياء الدكتور عصمت بدوى ، والأستاذ يوسف كمال محمد صاحب نظريات الاقتصاد الإسلامى . والدكتور أمجد صديق والأستاذ محمد أبو العلا ، الهادىء الطبع صاحب الحديث الرقيق .

كان معنا سيد القشاط خبير الشطرنج الدولى ، يستطيع أن يلعب وعلى عينيه عصابة ، فهو لا يرى الرقعة ، ورغم هذا لا يهزمه أحد فى هذه اللعبة .

وكان الشطرنج يصنع من لباب الخبز الردىء الذى يقدم لنا ، وتكون للشطرنج ناد فى العنبر ، من أبرز لاعبيه أو أعضائه الأستاذ حسين عبد العال المحامى والأستاذ حمدى اسماعيل والأستاذ سمير الهضيبى وكاتب هذه السطور وأحمد عادل كمال الذى لم يهزمه أحد فى هذه اللعبة حسبما أذكر .

والتحق الحاج محمد المخ بالنادى وكان يرى الشطرنج لعبة صعبة لا يمكن تعلمها ، ثم رأيته فى معتقل طره بعد سنوات وقد أجادها .

كان معنا أيضا:سعد السيد وحامد موسى والدكتور أحمد دَعَادِرْ الأستاذ بكلية الزراعة جامعة الزقازيق ، ومحمود شكرى ويحيى عبد الحليم أحد المجاهدين فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ .

وكان معنا صلاح ممتاز وعبد الغنى عوض مدرس اللغة العربية وخبير السلاح فى زعم المباحث العسكرية ، فهو الذى يفرق بين أنواع القنابل ، جيدها من خبيثها بمجرد النظر ، شأنها عنده شأن الجوافة والمانجو .

وكان معنا المرحوم الكابتن أمين شداد ، وقد احترقت طائرته فى « بانجكوك » بعد خروجه من المعتقل ، فى حادث مروع هز العالم ، وكانت تصحبه زوجته فى تلك الرحلة .

مختلف التخصصات ، والمهن ودرجات التعليم المختلفة ، والكل شاء أم أبى قد انضم إلى جماعة الإخوان المسلمين بإرادته أو بإرادة المباحث العامة ، وهو فى الكشوف إلى أن تقوم الساعة .

وكان هناك معنا الكثير ممن لم أستطع تذكرهم ، وكانوا جميعا من خيرة الناس ، وأحمل لهم أطيب الذكرى بعد مرور هذا الوقت الطويل .

* * *

شغل البعض نفسه بالصلاة معظم اليوم وجزءا كبيرا من الليل ، وشغل البعض نفسه بالأحاديث مع الآخرين ، أحاديث تبدأ من أية نقطة وتنتهى حتما إلى السياسة فى أغلب الأحوال .

وكان باب العنبر ذو القضبان الحديدية هو نافذتنا على العالم ، وأمامه من الداخل أقل من نصف متر مربع ليس به فراش لأحد ، فيسرع البعض بالاستيقاظ نشيطا مبكرا ليمسك بقضبانه ساعات ليبصر لا شىء فى فناء المعتقل ، ويتكاثر هؤلاء المشاهدون الممسكون بالقضبان ، بينما تقف مجموعة خلفهم لا ترى شيئا على أمل أن يمل واحد من هؤلاء ، فيندفع أقربهم مكانا ليقف بدلا منه ، وكان بعض المرضى يميزون فيقدمون ليحصلوا على هذه المتعة دون دور .

ويفضل البعض الآخر أن يترك صلاة الجماعة على ما فيها من حسنات حتى يتمتع بالمشاهدة وحده فى الدقائق التى تتم فيها الصلاة .

والمكان نظيف جدا ، رغم ندرة المياه ، وذلك العدد الضخم الذى يعيش فيه . وكانت النظافة من العمليات الدقيقة التى يقوم بها كل فرد أكثر من مرة فى اليوم ، وتتم بصعوبة شديدة لكثرة الساكنين فى العنبر ، فيجلس كل فرد على بطانيته مربعا ساقيه ويكنس البطانية بيده بصبر وأناه ، ثم يطويها ويكنس ما تحتها ، ثم يمسح البلاط بخرقة مبللة بالماء ، ويتكرر هذا مرات فى اليوم .

ويقوم « الدورى » بالنظافة العامة لدورة المياه ، والأماكن المشتركة مثل الباب والجزء الذى يقع أمامه ، وهما شخصان يتغيران كل يوم فى ترتيب ، ويعفى من ذلك المرضى وكبار السن .

وكان الورق والأقلام جريمة كبرى لا يقوى أحد عليها ولا يستطيعها ، والقراءة ممنوعة شكلا وموضوعا ، ومن ثم استطاع عدد كبير أن يتم حفظ القرآن الكريم فى تلك الأيام التى قضيناها فى أبى زعبل بعد انتهاء التحقيقات .

ومع مرور الأيام استطعنا أن نتحايل على النظام والقانون الذى يقضى بالتآكل الذهنى ، وتم الاتفاق على أن يقدم كل واحد محاضرة من واقع تخصصه .

وأتذكر فى هذا المجال محاضرات الأستاذ أحمد عادل كمال عن استراتيجية الفتوح الإسلامية ، التى كنا نستمع فيها وكأن على رءوسنا الطير من روعة العرض وعظيم المنطق ، رغم عدم وجود المراجع ، فقد كان الرجل حاضر الذهن منظم التفكير

فى عرض موضوعاته فى محاضرات عديدة حتى جاء أمر الإدارة بالتوقف عن هذا .

ثم اقترحوا علينا أشياء أخرى ، وكانت اقتراحاتهم أوامر لا تقبل العصيان ، وعلى الجميع تنفيذها دون تردد ، بل علينا أن نشيد بهذه الاقتراحات وروعتها وعظيم فائدتها .

* * *

اقترحوا علينا ما يسمى بالنقد الذاتى ، وعلينا جميعا أن ننقد أنفسنا نقدا ذاتيا ، واصطلاح « النقد الذاتى » اصطلاح وارد من البلاد الشيوعية ، وكان رئيس الوزراء آنذاك ما يطلقون عليه بالسيد على صبرى ، وكان هو صاحب الفكرة التى انتشرت فى المجتمع المصرى آنذاك . وكان على كل واحد أن يقف على رءوس الأشهاد لا ليلقى محاضرة فى التاريخ أو الكيمياء أو اللغة العربية كما كنا نفعل ، بل عليه أن يقف وينقد نفسه نقدا ذاتيا ، يعنى يسب نفسه ويذكر عوراته ومثالبه ودوره السلبى فى الحياه وأثناء نشاطه فى جماعة الإخوان المسلمين .

ولم تنجح دورة « النقد الذاتى » فقد كانت فكاهية تثير الضحك والسخرية من الجميع ، واعتبرناها حفلات ترفيهية فى ذلك الجو الكئيب .

* * *

وكانت الأيام تسير بطيئة ثقيلة أثناء إقامتنا فى عنبر خمسة ، وكانت النفوس ممتلئة بالتوجس والرهبة والخوف من مجهول غامض لا نعرف كنهه ، ولا ندرى متى يهجم علينا ، ولا ندرك ماذا يريد منا .

وكانوا لا يسمحون لنا بمغادرة العنبر على الإطلاق إلا مرة واحدة كل شهرين حيث نتجمع فى ساحة « المحمصة » – تلك التى شهدت عذابنا قبل ذلك – من أجل الحلاقة حيث يقوم بعض المعتقلين بالحلاقة لزملائهم ، بأدوات تم شراؤها من نقود جمعناها لهذا الغرض . وتتم الحلاقة لهذا العدد فى أكثر من ثلاثة ساعات حيث ننعم بمكان أكثر اتساعا من العنبر الضيق الذى نعيش فيه .

وكان إخواننا من الأسطوات لا يبخلون بخبرتهم على من يريد تعلمها ، وممن أتقن فن الحلاقة فى تلك الأيام الدكتور حامد صفراطه الأستاذ بكلية الهندسة ، وقد أتقنها لدرجة عجيبة تدعو إلى الدهشة ، حتى جاء اليوم الذى كان يظل طوال الليل يحلق للإخوان فى ليلة من ليالى أحد الأعياد ، فالكل حريص أن يحلق له الدكتور حامد صفراطه ، وصارت له شهرة فى هذا الباب ، حتى الضباط أنفسهم كانوا يترددون إليه ليقوم بحلاقة شعرهم بذلك الفن الذى تفرد فيه .

وكان يقوم بعمله تطوعا وحسبة لله سبحانه وتعالى بصبر يحسد عليه وبأناة شديدة رغم الجهد والإرهاق .

وأصيب عبد الفتاح ضرغام بحساسية فى وجهه ، فأوصى الطبيب أن يحلق ذقنه كل يوم ، فيفتح عليه الشاويش بعد توزيع الشاى ، وينزل إلى المحمصة ويحلق ذقنه ويعود لنلتف حوله نسأله عن أخبار لا وجود لها إلا فى مخيلتنا المترقبة المتحفزة لأى جديد قد يكون .

ويمر طبيب من المعتقلين على العنابر حيث يفحص المرضى فى العنابر ، ومن بينهما حجاب هو باب العنبر ذو القضبان الحديدية ، ويمد السماعة من خلال القضبان ليسمع القلب

ويكشف العلة ، ثم يصف له الدواء ، ويأتى به أحدهم بعد ساعة أو ساعتين .

وكان أغلب مايوصف من دواء علاجا لكل داء مايسمى « ببزموت طباشير » وهو سائل أبيض طباشيرى القوام يوصف للكحة والروماتيزم والمغص بكافة أنواعه ، والسبب أنه الدواء الوحيد الذى جاءوا به من مستشفى الليمان القريب فهو علاج مقرر لكل مريض ، مع عدم الأخذ فى الاعتبار نوع المرض ودرجة خطورته .

وكانوا ينقلون إلى مستشفى المعتقل ذلك الذى يبقى فى مكانه طريحا لأيام لاتقل عن خمسة أو ستة ، وذلك الذى تشتعل جبهته من شدة الحرارة ، ويوشك على الموت ، وهناك فى تلك المستشفى وهى عنبر من عنابر المعتقل قد شحن بالأسرة ، ربما يقدمون له دواء أفضل مستوردا من الخارج ، من خارج المعتقل .

ومن تستدعى حالته الجراحة قد يموت قبل أن ينقل إلى عنبر المعتقلين الموجود بمستشفى القصر العينى ، ولابد لنقله من التأكد من قرب وفاته ، فالوفاة فى القصر العينى أيسر وأسهل فى تسليم الجثة إلى الأهل .

* * *

وانقطعت صلتنا بالعالم الخارجى تماما ، فنحن لا نرى أحدا من أهل الإدارة والضباط ، والمكان يديره بعض المعتقلين ، فكأنه معتقل قطاع خاص ، فنحن لا نرى إلا أصحاب الملابس البيضاء الخيشية مثلنا ، نراهم وهم يروحون ويجيئون قياما على خدمة الناس وتصريف سائر الشئون .

ومع الأيام افترضنا فى هؤلاء الزملاء القدرة والعلم والمعرفة بالأسرار التى تلف المكان ، فهم يعرفون سبب اعتقالنا ، وهم يعرفون متى يفرج عنا ونخرج إلى بيوتنا ، وهم ربما يتوسطون وتنجح وساطتهم فى خروجنا من هذا السجن ، ونسينا أنهم مثلنا ويجرى عليهم ما يجرى علينا من شئون .

وتخيل بعضهم فى نفسه هذه القدرة ، فهو يتحدث بلغة الخبير الواثق العارف ويؤكد أن الإفراج سيكون فى الأسبوع الأول من شهر سبتمبر أو اكتوبر أو أى شهر قادم فى الطريق ، يتصادف قدومه عند الحديث .

وتمضى الأيام ولا يُفرج عن أحد .

ومازلنا نجتر آلامنا وأحزاننا وحيرتنا حتى جاءت توعية أبى زعبل الشهيرة .

الفصل السابع عشر

التوعية
فى أبى زعبل

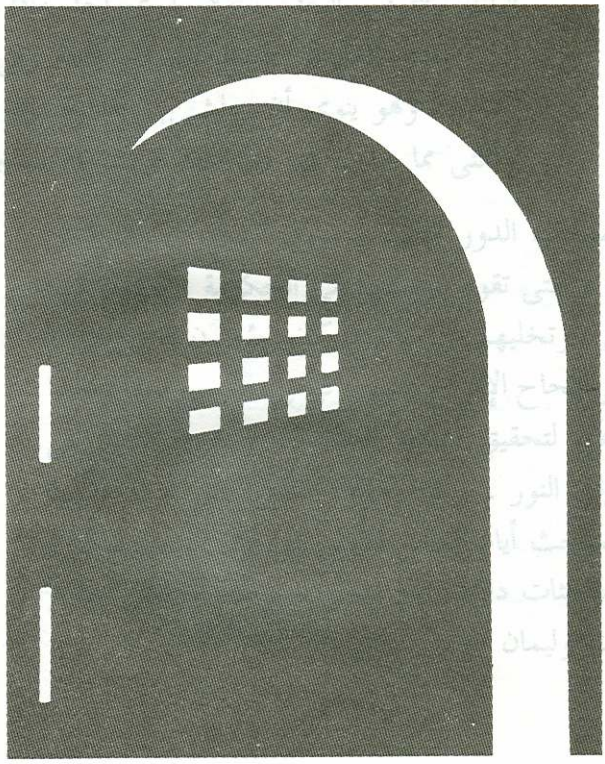

مازلنا فى نوفمبر (١٩٦٦) م :

ضجر المعتقلون وملوا ، ولايزال الجو كئيبا مكفهرا ، وهم تحت رحمة التجارب وعمليات التخويف والرعب ، باعتقال طويل لاينتهى أمده . والتبشير بالراحة والهناء لكل من يوافق على أعمال الحكومة وأهدافها البعيدة والقريبة ، وينادون أن الحكومة كانت تريد الإصلاح ، وإعادة تشكيل المجتمع على أسس سليمة جديدة ، وأن الإخوان المسلمين هم حجر العثرة فى طريق هذا الإصلاح ، وأنه لن يكتب لهذه البلاد الخير ، إلا بنزع هذه المفاهيم الدينية البالية من الرءوس ، ورغم فساد الإخوان وإجرامهم — هذا الذى فى زعمهم — إلا أن الحكومة طيبة القلب وزعيمها عالى الهمة ، بالناس رءوف رحيم ، فهو لا يأمر بقتلهم جميعا ضربا بالسياط ، بل يكفى البعض ، وعلى البعض الآخر أن يفيق قبل أن تدهمه الكارثة ، أو يأتيه الطوفان . وكان الناس يعيشون فى جو من البلبلة والترقب الحذر ، ولا يدرى أحد ماذا يراد منه فكل شىء بادى الغموض ، والزعيم فى أوجه وفى غاية اكتماله وتمامه ، وهو ينوى أن يبطش بهم بطشة هائلة ، لعلها أعظم وأعتى مما حدث لهم منذ عهد قريب فى السجن الحربى .

وبدأ أصحاب الدور الثالث يرسلون الشكاوى والعرائض إلى الإدارة ، حتى تقوم بتوصيلها إلى الحكومة ، يعلنون فيها عن ولائهم ، وتخليهم عن سائر ما كانوا يؤمنون به من قبل ، ويطلبون فى إلحاح الإفراج عنهم ، فيكون الجميع صفا واحدا خلف الزعيم لتحقيق أهدافه العظيمة ، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور . وكان هؤلاء الناس على صلة قديمة بقيادات المباحث أيام المحن الأولى فى أول الخمسينيات ، وكم من مباحثات دارت أيام سجن أسيوط ، وسجن جناح فى الواحات وليمان طره .

ووصل صوتهم إلى المباحث .

وكانت المباحث لا ترى خطرا فى هؤلاء ، فهم أوراق قد احترقت ولم يعد لها أى دور سياسى فى رأيهم ، ولكن الخطر كل الخطر فى أولئك الجدد ، الذين لم تكن لهم سابقة جهاد ، ولم يكونوا من أصحاب « الملفات » ، وفجأة وعلى غير انتظار ، كانت راياتهم تخفق ، وأصواتهم تنادى بالمبادىء والشعارات نفسها من جديد . لهذا كان غاية همهم أن يقضوا على هذه العناصر ، ويقوموا على تحطيمها نفسيا ، بعد أن تم تحطيمها بدنياً فى التحقيقات ، تحت إشراف المباحث فى أبى زعبل والحربى ، العامة منها والجنائية العسكرية .

واستيقظ الناس يوما على شائعة ملأت القلوب خوفا ، ولو أننا معشر الجدد لم ندرك يومها مغزاها ومعناها ، بل كنا نرى الخوف فقط فى وجوه الحرس القديم .

قالوا : إن هناك قائدا جديدا للمعتقل .

وهزَّ الناس رءوسهم استخفافا ، وماذا يعنى أن يكون قائد جديد للمعتقل ؟ .

فقالوا : إنه عبد العال سلومة البرى .

قلنا : وماذا يعنى هذا الاسم ؟

قالوا : سوف ترون بأنفسكم ، إنه الذى فعل الأفاعيل بالإخوان فى السجون ، وكان سببا فى قتل بضعة وعشرين شهيدا فى مذبحة طره عام (١٩٥٧) .

إذن فقد كشرت الحكومة عن أنيابها ! .

وأنياب الحكومة فاتكة قاتلة ، ووقعها أليم شديد .

ومضت أيام قبل أن يأتى عبد العال سلومة ، كان المعتقلون يستعدون فيها لاستقباله ، هناك من يعرفه ، وهناك من لا يعرفه ، وكان الجدد جميعا ممن لا يعرفونه ، فهم لا يكترثون كثيرا بمقدم عبد العال سلومه أو عدمه . وجاء يوم مكفهر أقفلت فيه العنابر والزنازين ، وأعلن التشدد فى النظام ومنع خروج أحد من المكان الذى يأويه .

وقالوا : هذا يوم يتسلم فيه القائد الجديد قيادة المعتقل ، بكل ما فى ضميره من خبرة فى معاملة الأسرى والسجناء ، وهو بهم عليم خبير .

ووقفت على الباب أنتظر الساعات لأبصر شيئا .

ورأيت شابا أميل إلى الامتلاء ، أحمر الوجه ، قد أمسك بغطاء رأسه العسكرى فى يده ، وملابسه الكاكية ، وقد علا كتفيه نسر كالح أغبر مفترس ، وحول شفتيه بسمة ساخرة مريضة ، وتومض عيناه الخضراوان بالوعيد وبالنوايا السيئة ، ومن حوله بعض الضباط الصغار ، وبعض « كبار » المعتقلين ، والمقام هنا بالقدرة على الخروج من العنبر ، وكان يسير فى عظمة واقتدار كأنه آدولف هتلر ، ولمحنى عبد العال بك فى لحظاته الأولى من وصوله إلى المعتقل ، وماتت البسمة على شفتيه ، وزمجر وزوى حاجبيه وصاح :

ـــ أنت يامعتقل . ادخل .

وعدت إلى مكانى داخل العنبر ، وقد سرقت ابتسامته الساخرة ، وجلست بها بين رعدة الموجودين من هذه

الزمجرة ، التى تنبىء بشر عظيم وعهد جديد ، لاندرى مايكون فيه .

وبدأ عصر عبد العال سلومة .

واجتمع الناس فى المساء ، يقلبون الأمر فيما بينهم ، وانتهى الاجتماع على سائر أمور حياتنا ، ولكن الجميع تواصوا بالحق وبالصبر ،وبالصمت أيضا ، والحذر البالغ من شرور ، لاندرى من أين تأتى .

وكان النداء : عليكم أن تستسلموا أو تموتوا .

على كل المعتقلين أن يخرجوا من العنابر رافعى الأيدى فكريا مستسلمين للجنرال المظفر عبد العال بك .

وازدرد الناس ابتساماتهم الساخرة ، وقد انطوت الصدور على تحدٍ عميق .

ونادى مناد فى الليل .

« اسْمَعَ كل المعتقلين » .

واستيقظ النائم ، وانتبه الجالس ، وصار الجميع آذانا صاغية .

وكان ذلك بعد وصول عبد العال سلومة بأيام .

« كل من يسمع اسمه يجهز عهدته ويقف على باب العنبر » .

وامتلأ المعتقل بالضجيج .

هذا كشف إفراج !

يا أفراح السماء !! .

ونادى المنادى من مكان قريب ، صار يقرأ الأسماء ، ويكرر الاسم مرتين ، والكل قد ذاب مع الصوت ، واشرأبت الأعناق ، واحمرت الحَدَق ، وكل واحد يدعو الله دعاء حارا أن ينطق المنادى باسمه ، فيخرج مع الخارجين .

وانتهى المنادى من النداء .

وقد قرأ بضعة وثلاثين اسما وسكت .

ولم ينم أفراد المعتقل طول الليل ، البعض يعد (حاجاته) وعهدته استعدادا للخروج ، والبعض الآخر ينتظر أن يُنادَى على كشف جديد .

وهكذا بدأ عصر عبد العال سلومة بالإفراج عن بضعة وثلاثين معتقلا .

نادوا فى العنابر : من يرد أن يحجز سجائر فليقدم اسمه . .

وبيع الدخان فى كانتين المعتقل .

وسُمح بصنع الفول المدمس .

وجىء بالفواكه والخضروات .

وفتحت جنة « سلومة » لتذكر المعتقلين بحياة البيوت والمشى فى الأسواق .

واستعد الناس لبرنامج حافل وعرض بهيج .

سرت الشائعات أنه سوف يفرج عن المعتقلين ، ليس كل المعتقلين ، ولكن أولئك الذين يستجيبون لأوامر الحكومة ونواهيها ، ولاشك أن الكل يظهر هذه الاستجابة ، فالجميع يريدون رؤية أولادهم وأهلهم .

وظهرت أمارات « التوعية » وهلّت أيامها .

يخرجون عددا منا كل يوم ، ينظف السلالم ، ويمسح البلاط ، ويلمع القضبان الحديدية ، ليبدو كل شيء براقا ، وهم ينشطون خلف الكواليس لتقديم مسرحية جديدة بممثلين نراهم للمرة الأولى ، وربما رأينا بعضهم قبل ذلك ونصبوا نصبة كبيرة ، عبارة عن منصة تسمح بجلوس ثلاثة ، وعلى مقربة مكتب يجلس عليه أحد ضباط المباحث وأمامه مسجل ، ثم تنزل ثلاث درجات حيث ساحة « المحمصة » فمكتب صغير يجلس عليه أحد المعتقلين ، هو أمين سر « التوعية » ، يسجل ما يدور ولا تفوته شاردة ولا واردة ، إلا أحصاها أمامه فى كتاب قد أعد ، ثم ربما يعيدون صياغتها بطريقتهم بعد ذلك .

وزينت العنابر وملئت باللافتات عليها عبارات التأييد للحكومة والتبرؤ من الإرهاب والضلال ، وسائر ما أوحى من شعارات .

ورتبت الهتافات فلكل عنبر هتافه المتميز ، مقولات رائعة لاتسمن ولا تغنى من جوع ، قد نمقت تنميقا ، وزوقت تزويقا .

واستمر الناس يزعقون بهتافاتهم من خلف القضبان ، ويرن صداها عبر البنيان والكل يظن أنهم سرعان ما يخرجونهم إلى بيوتهم إذا ارتفع الزعيق وجاوز الصراخ عنان السماء .

ويأتى صوت محمد الخنكاوى مهيبا جليلا يشق الضجيج .

« عنبر عشرة » .

فترد الجوقة بصوت أضعف من صوته .

ـــ « إجابيون » . يقصدون إيجابيون ! .

ويتردد الهتاف ، ويأتى من هنا وهناك ، وتختلط المعانى والمفاهيم ، والكل يعزف لحنا واحدا ، قد جرى توزيعه بأكثر من طريقة ، والأمل يملأ النفوس ، وبرجاء القيامة من بين أموات السجن ! .

واقترب الموعد ، وموعدهم يوم الزينة ، وأن يحشر الناس ضحى فى « المحمصة » ، وكل عنبر يبدى من نفسه قوة وحماسة وإخلاصا ، ولماذا لا يكون ؟ ، فالنتيجة هى الخروج من ذلك السجن الطويل الذى لايُدْرَى له آخر .

وفى اليوم الذى سبق موعد التوعية ، مكثنا طوال النهار نهتف من خلف القضبان ، وشطرا كبيرا من الليل ، حتى بح صوتنا ، والكل يخشى أن تلتقطه كاميرا تليفزيونية خفية ، وهو متكاسل أو غير متحمس ، وكأن هناك دائرة مغلقة ترسل الصورة إلى جهاز فى مكتب جمال عبد الناصر يرى فيه كل شىء .

وطلعت شمس يوم التوعية ، وكان الحماس قد بلغ مداه ، فما هى إلا أيام ويخرج من السجن ، وتكاليف هذا الخروج ما نقوم به من هرج ومرج ، وهتاف للاشتراكية والديموقراطية والوحدة ، وعظمة رئيس الجمهورية وتطاوله فوق الناس .

وخرج كلُ عنبر فى جَمْعِهِ ، يحمل وارده الذى يهتف هتافا عاليا ، والناس يردون عليه ، حتى يأخذ العنبر مكانه فى ساحة « المحمصة » ، ويأتى العنبر الذى يليه بهتافاته وحماسته ، التى تنتقل إلى الصفوف الجالسة ، فيردون عليهم ، وضابط المباحث السمين أحمر الوجه ، يعد جهاز تسجيله ، وعبد العال سلومة فى نشوة من السعادة والحبور ، فقد صنع مهرجانا عظيما ، وسوف ينقل مندوب المباحث ما رآه إلى السادة والكبراء ، ولاشك أنه كان يطمع هو الآخر فى منصب عظيم ، ربما يتذكرونه به .

وخرج عنبر خمسة فى جمْعِهِ وكنت منهم ، وكنا متحمسين ولكننا لا ندرى ماذا نقول ، ووقف واحد ورفعناه ، وقال هتافات بلهاء وصرنا نرددها خلفه ، ونحن نداري وجوهنا من الخجل ، وكان الواحد منا يشعر بالعار الشديد ، إذا ما التقت عينه بعين واحد من إخوانه .

وكان عم « أحمد قتة » سمينا بالغ السمنة ، صالحا تقيا ، بالغ الظرف ، وارتفع صوته عاليا :

ـــ ارفعونى .. ارفعونى .

ورفعناه بصعوبة شديدة ، وكان علينا أن نسير به فى ممر طويل ، حتى نصل إلى السلالم وننزل عليها ، وهو يهتف ونحن نرد عليه ، فلهذا رفعناه ، وكنت ممن اشترك فى حمله عليه رحمة الله ، وكنا نئن من وزنه ، فقد كان يساوى أربعة رجال وزنا .

وارتفع صوت عم أحمد قتة بهتافه عاليا .

ـــ « عنبر خمسة ، عنبر خمسة » .

فى تنغيم وترخيم كمقدمة لشىء .

وصرنا نرد عليه فى حماسة وقوة ، فإن كان عم « أحمد قتة » ، وهو الرجل الصالح القارىء للقرآن ، لا يستنكف أن يفعل هذا لينجو وننجو مما نزل بنا ، فلا بأس إذن على الآخرين .

وارتفع صوت رجال العنبر يرددون .

ـــ « عنبر خمسة ، عنبر خمسة » .

وعاد الأستاذ « أحمد قتة » يهتف بالعبارة نفسها . ونرد عليه بالجملة نفسها ، وننتظر أن يقول شيئا بلا فائدة ، ومازلنا نئن تحت وطأة وزنه نزولا على السلالم وأخذا لمكاننا بين العنابر فى مهرجان الزيف والخداع والهرج ، وهو لايقول غير :

ـــ عنبر خمسة ، عنبر خمسة .

ونحن وراءه :

ـــ عنبر خمسة ، عنبر خمسة .

ثم يغيرها :

خمسة خمسة ، عنبر خمسة .

واستقر المقام وجلست جميع العنابر ، وكان عدد المعتقلين الذين شهدوا هذه « التوعية » يتجاوز عددهم ثلاثة آلاف .

ولا يزال على الأعراف رجال !!

وبين الناس قد وقف فتية معلمون ، ومن الشرفات العالية هناك من يرقب الموقف ويعرف متى يهتف ، وعلى الجميع أن يرددوا عليه .

والويل لمن يتكاسل .

وارتفع هتاف من مغمور ربما ضاع اسمه فى التاريخ :

ـــ « لا رجعية ولا إخوان ،
ولا تجارة بالأديان . » .

ـــ « حاسبوا القادة على التضليل ،
وانسوا ماضينا فى الإخوان . » .

ـــ « حسن البنا وحسن الثانى ،
سلكوا طريق ضد الأديان . » .

ويرتفع الضجيج عاليا وتلهث الأنفاس ، ويتفصد الناس بالعرق ، والويل كل الويل لمن يفشل فى هذه التجربة .

وانفض مهرجان الهتاف ، وتكلم عبد العال سلومة فى اختصار موجز ، وبلهجة ركيكة ، وعبارة ضعيفة ، وقال : إن المكان الذى تعيشون فيه هو أقرب للمستشفى منه إلى المعتقل ، وإننا مرضى ، ومن واجب الحكومة أن تقوم بعلاجنا ، وهى تفعل الآن ، وعلاج الأجسام أمر سهل أما علاج العقول ، فهو أمر بالغ الصعوبة ، ونحن ـــ أى الحكومة ـــ سنفعل ما علينا ، ونؤدى واجبنا فى علاجكم ، وعليكم أن تشفوا من أمراضكم وتنصلح أحوالكم ، ومن يفعل فسوف يخرج ، ومن يفشل فسوف يبقى ، سنة ، اثنتين ، ثلاثة ، عشرة ، عشرين ، هكذا حتى يموت ، هذا عصر الزعيم الملهم جمال عبد الناصر ، وهو فى أوج صحته وقوته ، وسوف يحكم هذه البلاد أكثر من خمسين عاما باقية من عمره المديد ، ولن يموت حتى يحكم بلاد العرب ، ويحارب الاستعمار ، ويهزم أمريكا .

وارتفعت الهتافات :

ـــ إسرائيل .. إسرائيل .

وجاء صوت عبد العال سلومة :

ـــ إسرائيل أقل من أن نتكلم عنها ، هذه ستدوسها أقدام الزعيم عندما يتحرك لحرب أمريكا ، ولا يليق بنا أن ننسب إلى سيادته الانتصار على إسرائيل .

ويرتفع الهتاف حماسيا عاليا .

ويصمت الرجل فى تواضع مصطنع أخاذ ، ثم يواصل خطبته العصماء ، يأمرنا بالمنكر وينهانا عن المعروف .

ويقاطع بالهتاف والتصفيق فى كل جملة يقولها .

عشنا هذا الهراء ما يقرب من الشهر ، وعانينا منه فى المسرح ، وعندما نخلو إلى أنفسنا فى العنبر فى نهاية النهار ، محاضرات تلقى وأسئلة نقدمها ، يجيب عليها المحاضرون فى ترفع شديد ، وهى أسئلة أغلبها أبله سخيف لا معنى له ، وأناس يناقشون الحساب .

سبعة موضوعات عامة إسلامية وسياسية ، ألقيت علينا محاضرة إثر أخرى ، ولم يكن يعنى أحد مايقوله المحاضر ، بل كل ما يعنيه أن يبدو متيقظا متجاوبا مع الكلام ، وأن هناك من يرصد حركته ، ولابد أن يسارع بالهتاف مع الهاتفين ، وبالتصفيق مع المصفقين ، والويل لمن لم يفعل .

وقام بعض الأشخاص المدربين بإلقاء الأسئلة ، وكلها تدور حول معنى واحد تمجيد الثورة ، ولوم الإخوان المسلمين .

وشجع الآخرون على إلقاء الأسئلة ، ومن أراد أن يخرج من هذه المدلهمة ، فعليه أن يوضح نفسه ، وقام الناس على استحياء يلقون الأسئلة البلهاء فى خط التقليد نفسه ، والكل يريد أن يرى أولاده ، ومادام هؤلاء السخفاء يصدقون هذا النفاق ، فلنفعله وما فى القلب فى القلب ، ويبدو أن علماء الشيعة كانوا حكماء عندما أوصوا بالتقية .

وكان البعض يبالغ فى إرضاء الحكومة وتملقها من أولئك المدربين تدريبا عاليا . وقام واحد وطلب أن يناقش الحاج صالح أبو رقيق .

واستدعى الرجل إلى المنصة وجلس وانهارت عليه الأسئلة لإحراجه والنيل منه ، وسُئل عن تفاوض الإخوان مع الإنجليز قبل اتفاقية الجلاء عام (١٩٥٤) ، وأدار الرجل بصره بين الموجودين فى شجاعة نادرة :

ـــ فى الحقيقة قد تم اللقاء مع الإنجليز ، بناء على طلب جمال عبد الناصر لتقوية موقفه ، فى المفاوضات على الجلاء من مصر والسودان .

وسأله عبد العال سلومة فى تهكم :

ـــ وكيف تقوون موقفه فى المفاوضات ؟

ولم يلتفت إليه (صالح أبو رقيق) بل وجه كلامه للمجتمعين :

ـــ كان الإنجليز ينظرون إلى الإخوان كأكبر هيئة شعبية فى مصر ، فإذا تشددنا فى شروط الجلاء ، فيستطيع أن يحصل عبد الناصر على شروط حسنة جدا ، وكان هذا هو الاتفاق بيننا وبينه فى حضور شهود .

وتمطى عبد العال سلومة وهو يسأل :

ـــ وماهو الدليل على صدق كلامك ؟

والتفت إليه صالح أبو رقيق :

ـــ جمال عبد الناصر شخصيا .

وسكت الناس كأن على رءوسهم الطير ، بينما واصل صالح أبو رقيق حديثه :

ـــ أنتم تفتحون موضوعا قد لايعجب الرئيس الخوض فيه ، ومن الخير يا (عبد العال بك) أن نغلق هذا الموضوع .

وانكمش عبد العال سلومة وقال :

ـــ ننتقل إلى موضوع آخر .

ومن الدور الثالث نادى أحد المدربين بصوت عال :

ـــ أيها الثعبان الملتوى .

ورفع (صالح أبو رقيق) رأسه إليه :

ـــ أنتم مساكين لا تدرون ما تفعلون ، ولا تدرون أيضا ما يُفعل بكم .

وتكهرب الجو ، وهاج الناس ، واختلط الحديث ، حتى دق عبد العال سلومة على المنضدة يطلب الصمت :

ـــ فلننتقل إلى موضوع آخر .

كان البرنامج يعتمد على استدعاء بعض الشخصيات وسؤالها وإحراجها ، وإظهارها بمظهر المرتد عن أفكاره القديمة ، أو يحاولون أن يجعلوه فى موقف متناقض مع الحوادث ، التى شارك فى صنعها ، ومع المبادىء العامة ، التى يدين بها هو ومن تبعه ، وكانوا ذوى براعة فى اختيار الناس ، فلا يقعون إلا على المشهورين ، وأصحاب السابقة فى الجهاد والعمل السياسى .

وجلس (محمود زينهم) على المنصة للاستجواب .

وسأله عبد العال سلومة :

ـــ لماذا قتلت الخازندار ؟

وانفعل محمود زينهم :

ـــ لقد اتهمت بقتل الخازندار قبل الثورة وقدمت للمحاكمة وصدر ضدى حكم بالسجن على هذه التهمة ، وقد نفذت هذا الحكم ، ولا أظنكم تحاكموننى من جديد فى قضية نظرت من ربع قرن .

ـــ نحن لا نحاكمك .

ـــ وليس فى وسعكم هذا . بلاش لعب عيال .

وحاول عبد العال أن يسترضيه :

ـــ لاتغضب يامحمود . نحن نحاول تبصير هؤلاء الشباب الذين تراهم . هذه توعية بأمور الدين والسياسة .

ويرد عليه محمود زينهم فى قوة :

ـــ هؤلاء الذين أمامك هم أعرف الناس بالدين والسياسة .

ـــ هل كان الخازندار يستحق القتل ؟

– قاض يحكم بالظروف المخففة فى قضية سفاح الإسكندرية ، ويخطب فى المحكمة مشيدا ببريطانيا المستعمرة ، ويقول : إن قواتها قوات لدولة حليفة وليست دولة مستعمرة . ويحكم فى القضايا الوطنية بأشد العقوبات .

ـــ هو يستحق القتل . أليس كذلك ؟

ـــ أنا لا أحاكمه الآن .

ـــ لماذا قتلت أحمد الخازندار ؟

ـــ هذا سؤال سخيف ولا معنى له .

ـــ لماذا لا تجيب عليه ؟

ـــ أنا حر .

ـــ أنت قتلت الخازندار .

ـــ افهم ما تشاء .

وقام محمود زينهم من المنصة غاضبا ثائرا ولم يستوقفه أحد .

* * *

وجلس الصاغ محمود عبده أحد المجاهدين فى حرب فلسطين عام (١٩٤٨) للمناقشة ، وتلقى الأسئلة السخيفة من هنا وهناك ، وقلب الرجل عينيه فى الشهود ، وهو يحاول أن يخفى إيماءة عاتبة تبدو من تلون وجهه وطريقة نظرته ، وكان يخفى غضبه وتوتره فى ارتعاشة عينيه وهو يتكلم ، ويجتهد أن يرسل حديثه هادئا صافيا خاليا ، فينجح فى أحيان ويفشل فى أحيان كثيرة ، ولكنه فى كافة أحواله كان يجيب على أسئلة السائلين فى صراحة وبساطة ، كأنها حد السيف القاطع .

وسأل السائل بصوت هو إلى فحيح الأفعى أقرب :

ـــ بصفتك أحد قواد الإخوان المسلمين فى حرب فلسطين . .

ويقاطعه محمود عبده فى تحد وشمم :

ـــ نعم ، هذا صحيح .

ويستمر الصوت الأفعاوىّ :

ـــ هل كان الإخوان على حق فى تغريرهم بالشباب الصغير فى حرب خاسرة ؟

واستدار محمود عبده إليه :

ـــ هل تتكلم عن حرب فلسطين عام (١٩٤٨) ؟

ـــ نعم .

وكتم الرجل انفعالاته ما أمكنه ذلك ، ولكنها بدت جلية فى رعشة عينيه ، وفى صوته المتهدج وعروق يده النافرة ، وأصابعه التى تربت على المنضدة فى غير تناسق أو صوت ، وهو يستجمع هدوءا وسكينة من أى مقصد يستطيعه :

ـــ أرجو فى هذا الاحتفال الذى أقيم لتجريم الإخوان المسلمين ، ألا تفوتنا حقائق هامة ، إن فاتتكم فسوف يضيع الغرض الذى تقصدون إليه ، وهو الإساءة إلى جماعة الإخوان المسلمين .

وقاطعه عبد العال سلومة :

ـــ هل مازال اسمها جماعة الإخوان المسلمين فى نظرك ؟

والتفت إليه محمود عبده فى مرارة وسخرية ؟

ـــ سبحان الله ، هذا هو اسمها ، أو ماذا تسميها أنت ؟

وقال عبد العال سلومة :

ـــ ماعلينا ، ادخل فى الموضوع .

وتجاهل محمود عبده اللهجة الوقحة التى كلمه بها عبد العال سلومة ، واستمر فى حديثه إلى المجتمعين الذين كانوا يتجاوبون معه فى صمت بليغ :

ـــ إن كنتم تريدون الإساءة إلى جماعة الإخوان المسلمين ، فابحثوا عما يسىء إليهم ، وإن كان هناك ما يسىء إليهم فليس منه دورهم العظيم فى حرب فلسطين بالتأكيد .

فقد جندوا الكتائب لمقاومة اليهود فى فلسطين ، عندما تخلت عن هذا الدور كل الحكومات العربية آنذاك ، وكان لجهادهم الفضل فى دخول الجيوش العربية إلى فلسطين ، أو ماذا تنتظرون من جماعة يهتف أفرادها أن الله غايتهم ، والجهاد سبيلهم ، والموت فى سبيل الله أسمى أمانيهم ، ثم يجدون العدو يقتطع أرضا من بلاد المسلمين ويسكتون ؟ هذا يتنافى مع مبادئهم ، وجهاد الإخوان فى فلسطين وشهدائهم الذين سقطوا على أرضها أمر يحسب لهم لا عليهم ، فابحثوا عن نقيصة لهم إن وجدتم ؛ لتدركوا غرضكم الذى ترمون إليه . .

وضج الجمع بالتصفيق بين غضب قائد المعتقل ورجاله ، وكادت المسرحية أن تسقط ، فالكل يرتجل وليس هناك نصّ مكتوب يلتزمون به ، وصعب على رجل مثل محمود عبده أن يقف ليدلى بشهادة أمام التاريخ ويزور فيها .

وأوقفت الضجة بصيحات غاضبة ، جاءت من هنا وهناك ، وهدأ الناس ، واختفى استحسانهم من وجوههم ، وعاد التجهم من جديد ، فقد كادت شجاعة محمود عبده أن تزيل من نفوسهم ما انتووا عليه من خداع الحكومة ، والتظاهر بالاستجابة إلى ما تريده منهم .

ويعاودون سؤال الأستاذ محمود عبده :

ـــ لقد كتبت برقية من السجن تؤيد فيها الرئيس جمال عبد الناصر ، وتبارك خطواته بعد تأميم قناة السويس وهناك من خالفك ، لماذا أيدت ؟ ولماذا خالفوك ؟

وفى تؤدة ورزانة ينساب الكلام من بين شفتى الرجل :

ـــ أممت قناة السويس ، وهوجمت مصر ، واحتلت بورسعيد ، ومن الطبيعى على رجل مثلى أن يفكر فى الدفاع عن وطنه ، ورئيس الدولة هو الوحيد الذى يستطيع منح هذه الفرصة لمسجونين أمثالنا ، ونص البرقيه كالتالى :

« إن الإخوان المسلمين الذين قاتلوا معكم على أرض فلسطين يطلبون أن تمكنوهم من قتل الإنجليز واليهود على أرض مصر » .

ـــ وماذا كانت استجابة الرئيس جمال عبد الناصر ؟

وفى تهكم خفيف عبر كلمات رزينة قال الأستاذ محمود عبده :

ـــ لم يرد علينا الرئيس حتى هذا اليوم !

وصاحت الأصوات من هنا وهناك :

ـــ لقد رد على البرقية ببرقية شاكرة .

وفى ابتسامة يصعب على أى أحد أن يفهم معناها قال :

ـــ لقد كنا فى السجن ولم نمكن من واجب الدفاع عن أرضنا كمسلمين . .

ـــ دعنا من هذه النقطة ولنتكلم فى نقطة أخرى .

ـــ من الخير للجميع أن يتوقف هذا الاستجواب .

وترتفع الضجة ، شىء غير مفهوم . هل هو استحسان لكلام الرجل ؟ أو هو خوف من سقوط المسرحية لكثرة الارتجال ؟ أم ماذا ؟ ولكن توقفت هذه الضجة عندما قام ضابط المباحث الجالس عند جهاز التسجيل بعد أن أوقفه عن العمل واتجه ناحية عبد العال سلومة ، الذى انتفض واقفا فى اهتمام واحترام وتبادلا الهمس والحديث ، ثم عاد كل واحد إلى مقعده .

وقال عبد العال سلومة :

ـــ فلننتقل إلى نقطة أخرى .

كانوا يبحثون عن شهود ليشوهوا صورة الإخوان المسلمين ، وهو أمر صعب فهم يطلبون من الناس أن يتخلوا عن تاريخهم ، وأن يقروا بألسنتهم أن كل ما قاموا به من جهاد فى سبيل الله كان محض هراء ، يريدون منهم أن يلعنوا سادتهم وشيوخهم ومن علموهم ، ومن هدوهم إلى الصراط المستقيم ، وقد يستقيم التمثيل فى الضجة ، حيث ترتفع جميع الأصوات ، ولا يكون هناك غير جوق صاخب ، لايعرف من يسمعه مايقوله كل واحد ، ولكن الأمر يختلف

عندما يتحول هذا الصخب إلى شهادة أمام الناس والتاريخ ، ويختلف أكثر عندما تطلب هذه الشهادة ، من صفوة الناس ، وخيرتهم ، وقادتهم فى المدلهمات العظام .

كان القائمون على هذه المسرحية الهزيلة غير موفقين على الإطلاق ، فرغم شدة الخوف ، وعظم الموقف لم ينجحوا فى إحداث هزيمة روحية حقيقية لهؤلاء الناس ، بل كانت النتيجة على عكس ما أرادوا .

كانوا يريدون منا أن نكره من نحب ، وأن نحب من نكره ، وأن نحتقر فى ازدراء كل قيمة كونتنا وأنشأتنا ، وأن نلعن عظماء الناس ، ونهتف بحماسة للقردة والخنازير ، ولم نستطع سوى الأخيرة ، لوضوح الكذبة ولأنها بلقاء مشهورة يفهمها الجلادون والمجلودون .

وجاءوا بمحمد قطب .

وما أدراك من محمد قطب !

رجل عالم أديب ورع ، صاحب خلق ودين ، فى وداعة وسماحة وطيبة ، يستمع النكتة ويتكرها ، يكثر من الصلاة وقراءة القرآن ، قابلته مرة فى مكتبة وهبة عام ١٩٥٨ ، قرأت له ولأخيه الشهيد كل ما كتبا ، كنت أراه فى وغى الظلم بالسجن الحربى بين الحين والآخر وهو ذاهب للضرب أو قادم منه أو فى أثناءه ، لم أتحدث معه إلا فى أبى زعبل ، واكتشفت فيه ما قلته عنه ، وأضيف إليه الشجاعة بعيدا عن الحماقة ، والقوة فى بسمة عطوف طيبة ، يقابل بها أصدقاءه وأعداءه .

وجلس الرجل على المنصة بجسمه النحيل ولون وجهه الباهت ، حتى يخيل لمن يراه لأول مرة أنه خائف من هذا الموقف ويرهب هؤلاء الناس .

ونبح واحد من الرؤساء :

ـــ انقد لنا نفسك نقدا ذاتيا .

وأجابه الرجل فى هدوء وبساطة :

ـــ ماذا تعنى ؟

ـــ أنت رجل تؤلف الكتب ، وتفهم معنى النقد الذاتى ، اذكر لنا سلبياتك وإيجابياتك .

ويشرق وجه عبد العال سلومة من تلك اللهجة الوقحة ، التى يخاطب بها الأستاذ محمد قطب ، ويظن أنه قد أحيط به ، وأنه بعد قليل سوف يطلب النجدة ويلوذ بالهرب ، وصار يتبادل النظر مع ضابط المباحث ، وقد بدا عليهما السرور .

ويعاود الرجل التحدى والاستفزاز :

ـــ أم تظن نفسك بلا سلبيات ؟

ويرد محمد قطب فى هدوء ورزانة :

ـــ كل إنسان يخطىء ويصيب فى قوله وعمله ، وهذا ما قاله رسول الله ﷺ ، وهى طبيعة البشر ، فكل ابن آدم خطاء . ولست على استعداد للحديث عن أخطائى ، إلا إذا كانت تمس أحدا من الموجودين .

ورفع وجهه فى الناس ، وارتفع صوته قليلا يشق الصمت البليغ ، الذى بدا وكأنه لايوجد أحد فى المكان :

ـــ هل فيكم من أخطأت فى حقه ؟

وارتفع هرج الاستحسان والسرور ، ولولا الخوف لضج الناس بالتصفيق .

وزمجر السائل ليمنع الضجة :

ـــ لقد أخطأت فى حق الحكومة ياأستاذ .

وعاد الصمت من جديد ، واشرأبت الوجوه ، وانسابت كلمات محمد قطب خفيفة هذه المرة :

ـــ وهل تتكلم نيابة عن الحكومة ؟

وزمجر السائل ثانية :

ـــ دعنا من هذه المراوغات والمناورات ، لقد بطل سحركم ، وانكشفت ألاعيبكم ، ولن تستطيعوا شيئا بعد ذلك ، ألم تكفر الحكومة أنت وأخوك سيد قطب ؟

ـــ معاذ الله ، هذا شىء لا أملكه ولا أستطيعه .

وظهرت أمارات النصر والفوز فى وجه السائل ، وكل من يجلس على المنصة ، وأحسست ساعتها بخيبة الأمل والحزن لانهزام الرجل ، وربما شاركنى الجميع الشعور نفسه .

وانبرى السائل فى سرور وفى لهجة أخف حدة :

ـــ هذا ما نود سماعه منك ، إذن فأنت تنكر أمام هذا الجمع كل ماجاء فى كتبك وكتب أخيك سيد قطب ؟

ـــ بل مؤمن موقن بكل حرف كتبته أو كتبه أخى حسبة لله تعالى .

وجاوزت الضجة الآفاق ، وتدخل عبد العال بك ليعيد النظام :

ـــ يعنى يامحمد الحكومة كافرة فى رأيك ؟

ـــ الحكومة كافرة باعترافها هى نفسها ، وكافرة بنص القرآن الكريم ، وليست بكلام سيد قطب أو محمد قطب ، وكلكم تعلمون ذلك ، وهذه قضية بسيطة صارت فى حكم البَدَهيّات يعرفها الصغير والكبير والعالم والجاهل ، حكومة قد ارتضت نظاما غير الإسلام ، وشريعة غير القرآن ، ثم زادت فى فسادها، وتاجرت فى الخمر ويسرت الزنا للناس ، وفتحت أندية الميسر ، وفعلت كل الموبقات وباركتها ماذا تقول فيها أنت ؟

وكانت الذروة ، وارتفع الصراخ ، واختلطت الأحاديث ، فلم يعد أحد يدرى ماذا يقوله الآخر ، وتضاءلت المنصة وتبادلوا الهمس . وضرب عبد العال سلومة بشدة على المنضدة :

ـــ فلننتقل إلى نقطة أخرى .

وقبل أن ننتقل إلى نقطة أخرى هطلت السماء مطرا شديدا ، وقامت المنصة لتحتمى من المطر فى المكاتب ، وتركونا فى الفضاء المكشوف بالملابس الخفيفة التى على أجسادنا ، ولم يسمحوا لنا بمغادرة المكان ، ورغم هذا لم يشعر أحد به ، فقد كانت الأنفاس تلهث ، والكل فى شغل شاغل بأفكاره عن المطر وعن أى شىء آخر ، وكنا نرقب محمد قطب وهو يعود إلى مكانه بيننا فى هدوء وسكينة ، ونريد أن نحييه ولكن لا نستطيع .

وعادت الجلسة إلى الانعقاد ، بعد أن ذهب المطر ، وعادت المنصة إلى مكانها ، وقبل أن ينتقلوا بنا إلى نقطة أخرى كما عودونا شق الصمت صوت :

ـــ أريد أن أسأل سؤالا .

والتفتت الرءوس ليعرفوا صاحب هذا الصوت ، وكان المرحوم أحمد نصير المحامى ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى أراه فيها ، ثم صحبته بعدها سنين ، كان فيها من أشجع الناس وأجرئهم فى قول الحق ، مهما ترتب على ذلك من تبعات ومتاعب ، ومات رحمه الله فى ظروف غامضة ، فى القصر العينى منقولا من معتقل طره السياسى .

وعرفه واحد من المنصة فقال :

ـــ هذا أحمد نصير وخاله سيد قطب وكذلك محمد قطب .

وناداه عبد العال سلومة :

ـــ تعال هنا . .

وصعد الرجل إلى المنصة .

ـــ نحن الذين نريد أن نسألك سؤالا .

ـــ تفضل .

وأجلسوه فى المكان المخصص لأولئك الذين يريدون تجريحهم وتجريمهم :

ـــ ماقولك فى سيد قطب ؟

ـــ هو خالى ، وهو أمر يجعلنى أختال تيها بين الناس ، وهو أمر يملؤنى بالفخر والعزة ، ولا أظن أن هذا يخفى عليكم .

ـــ إذن فأنت على أفكاره ؟

وانفجر الرجل فيهم كالبركان :

ـــ يامنافقون ياغشاشون . هذا هو عالم الإسلام العظيم ، الذى تشرف مصر به على سائر البلاد ، تتكلمون عن كفر الحكومة ، وهل فى هذا شك ياأوغاد ؟ أنتم أكثر الناس خبرة بها ، وتعرفونها كما تعرفون أبناءكم ، أمن أجل بضع سياط أخذناها على أجسادنا نكفر بالله العظيم وبدينه القويم ، بئس القوم أنتم لنبيكم ولدينكم .

ولم تكن بضعة سياط كما قال ، بل كانت ساقاه ممزقتين بالسياط وهو يتحدث . عليه رحمة الله .

وهاج الناس كالعادة ، وتدخل سلومة بفض الجلسة والأمر بالعودة إلى العنابر ، وعاد الناس ، وعلى السلم أوكلوا بالمرحوم أحمد نصير من أوسعوه ضربا ولكما ، حتى سال الدم من أنفه وفمه ، ولم يسمع أحد عن السؤال الذى كان يريد أن يسأله .

عدنا إلى العنبر فى هذا اليوم البارد من أيام شهر نوفمبر عام (١٩٦٦) وأقيمت الصلاة وصلى الناس ، وجلس البعض يتناول طعام الغداء وامتنع البعض الآخر عن ذلك ، وظل الجميع سكوتا ، قد شغلتهم أفكارهم ، وأُذّن للمغرب ، وصلى الناس ، وعادوا إلى صمتهم ، ثم أُذّن للعشاء ، وصلوا وانصرف كل واحد إلى مكانه ، لايتحدث إلى أحد ، ولم يتناول أحد عشاءه ، ولا أذكر حديثا تبادله واحد مع آخر فى تلك الليلة .

وأذكر أيضا أننى لم أذق طعم النوم فيها ، وكانت أفكارى تعذبنى ، هل من العدل أن يتحمل بعض الناس هذه المواقف الكبيرة ، بينما نكتفى نحن بالنظر والتأمل ؟ إلى أى مدى يمكن أن يصل هذا الطغيان ؟ كنا أبصر الناس بمصر فى تلك الأيام ، وكل واحد يدرك جيدا ، ماذا يمكن أن يحدث لبلد قد تحكم فيه حاكم جاهل مستبد متغطرس يفعل بالناس مايشاء ؟ وهل حلال سكوتنا وتَقِيَّتنا أم حرام ؟ أسئلة ظلت تمور فى رأسى ولا أجد لها إجابة ، حتى قام واحد من الإخوان وأذن لصلاة الفجر .

أخرجونا كالعادة إلى الساحة .

ومن بين الهتاف والضجيج ، نصب المهرجان من جديد .

وكان نجم المنصة المرحوم منير دلة عضو مكتب الإرشاد .

وكان رحمه الله هادئا جسيما وسيما ، فيه أناقة رغم لبس السجن الذى يرتديه ، أبيض مشربا بحمرة ، كستنائى الشعر خشنه ، على عينيه نظارة طبية ، لبقا ، دبلوماسيا ، حذرا فى حديثه ، يتجنب الخوض فى المتشابه من الوقائع ، يريد أن يؤدى دوره ، دون أن يفقد وقار القائد ، وبغير أن يفسد على الناس حقيقة مايفهمون ، فإن كانوا يريدون مهرجانا فلا بأس منه ، فى حدود عدم الخروج عن المسلّمات العامة الدينية التى حكمت جماعة الإخوان .

ـــ أنت الذى جئت بحسن الهضيبى مرشدا عاما للإخوان ؟

ـــ لقد اقترحت هذا فقط ، وليس فى وسعى تعيين مرشد للإخوان .

ـــ كان هناك عبد الرحمن البنا ، والباقورى ، وصالح عشماوى ، وعبد الحكيم عابدين وآخرون ، وكلهم من قدامى الإخوان ، وأعرف بالجماعة من حسن الهضيبى .

ـــ قد جمعت كل هؤلاء ، وطلبت منهم أن يتفقوا على واحد منهم وتعذر هذا ، وبذلت غاية جهدى فى توحيد كلمتهم على واحد منهم ، أى واحد يختارونه بلا فائدة .

ـــ فتأتيهم إذن بواحد من خارج صفوف الجماعة وتجعله مرشدا عاما ؟

ـــ لم يكن حسن الهضيبى من خارج الجماعة ، وكان المرحوم حسن البنا يزوره دائما بقريته عرب الصوالحة ، مركز شبين القناطر ، ويقول عنه : هو شامة بين رجال القضاء ، وكان يثنى عليه فى مجالسه الخاصة والعامة .

ـــ ما رآه أحد فى المركز العام .

ـــ كان حسن الهضيبى حريصا على دروس الثلاثاء ، التى كانت تقام بالمركز العام ، وكان يجلس فى آخر الصفوف حيث ينتهى به المقام . وبحكم منصبه القضائى لم يكن من المناسب أن يظهر بشكل علنى فى تشكيلات الجماعة .

والتفت عبد العال سلومة بوجهه الأحمر وعينيه الخضراوين وبلهجته المثيرة :

ـــ ألم يكن هناك من يصلح لمنصب المرشد العام غير حسن الهضيبى ؟

ـــ بلى ولكنهم لم يتفقوا كما قلت .

وبسخرية واضحة :

ـــ ويتفقوا على حسن الهضيبى عندما ذكرته لهم ؟

وفى ثقة وتأكيد أجاب منير دلة رحمه الله :

ـــ هذا ماحدث بالضبط . لقد فكرنا فى أسماء كثيرة . فكرنا فى مصطفى مؤمن ، والدكتور عبد العزيز كامل ، وآخرين أقل شهرة وأصغر مكانة من حسن الهضيبى ، وصوّتنا على الأسماء فى اجتماعات تمت ببيتى ، ولم يحصل أحد من المرشحين على أكثر من صوته هو ، وعرضت اسم حسن الهضيبى على المرشحين الكبار ، وأجمعوا على الموافقة عليه ، ورحبوا بهذا الاقتراح ترحيبا كبيرا .

وكان الناس يتابعون حديث منير دلة فى اهتمام كبير ، والشغف باد فى العيون المتطلعة ، والآذان المرهفة ، والصمت الذى يلف المكان ، وكانت المقاطعة الساخرة المتهكمة هى غاية جهد المنصة فى إضعاف صوت منير دلة ، وفى تهكمه الدائم قال عبد العال سلومة :

ـــ وسارع حسن الهضيبى بقبول المنصب أليس كذلك ؟

وأجاب منير دلة فى ثقة وقوة :

ـــ على العكس من هذا تماما .

ـــ لم تخبرنا بهذا .

ـــ أنت لم تعطنى فرصة للحديث .

ـــ تكلم كما تشاء ، نحن لن نغادر المكان حتى يعرف هؤلاء الشباب حقيقة الإخوان المسلمين .

وارتفعت الهتافات من هنا وهناك ولم يسمع الترديد عاليا هذه المرة :

« لارجعية ولا إخوان ولا تجارة بالأديان » .

وواصل منير دلة حديثه ، بعد أن أدار وجهه هنا وهناك منتظرا نهاية الهتاف :

ـــ لم تكن فكرة ترشيح حسن الهضيبى تخطر على باله بالمرة ، وفوجىء بها ، ورفضها بشكل قاطع حاسم ، ورفض مجرد مناقشتها فى أول الأمر . وتحدثت إليه وشرحت له ظروف الجماعة ، وكيف أنها حلم المسلمين فى التخلص من الاستعمار والقضاء على الفساد فى مصر ، ثم تحقيق الإسلام فى المجتمع ، وكيف أن هذا الحلم يوشك أن يضيع .

ـــ وهل جماعة الإخوان تريد تحقيق الأهداف الوطنية والقومية ؟

ـــ أنا أحكى الآن عن ظروف اختيار الأستاذ الهضيبى مرشدا عاما لجماعة الإخوان المسلمين .

وأكمل له عبد العال سلومة وهو يضغط على الحروف :

ـــ المنحلة .

والتفت إليه منير دلة وردَّد خلفه موافقا فى هدوء :

ـــ المنحلة .

ـــ تفضل . أكمل كلامك .

واستطرد منير دلة :

ـــ وعندما علم الأستاذ الهضيبى أن موافقته على هذا الترشيح ، قد تحمى جماعة الإخوان من الانهيار وافق على مناقشة الفكرة ، وعرض المشاكل والصعوبات التى تكتنف فكرة كونه مرشدا عاما للإخوان . وكان منها أنه لايعرف شيئا عن تنظيمات الجماعة وتشكيلاتها ، فأفهمناه أننا سنعرض عليه تفاصيل كل شىء ، وباختصار ذللنا له كل العقبات التى أشار إليها ، ووعدناه بالوقوف معه فى كل صغيرة وكبيرة .

ـــ أنت إذن الذى عينت المرشد العام للإخوان ؟

ـــ عندما رحب المرشحون الكبار باسم حسن الهضيبى ، عرضنا الأمر على مكتب الإرشاد الذى وافق على هذا الترشيح . ومكتب الإرشاد هو الهيئة التنظيمية التى تدير شئون الجماعة ، وترسم السياسات العامة لها . وهو صاحب القرار وأعضاؤه مشهود لهم بالفضل ، ومطاعون فيما يشيرون به ، ثم أخذت له بيعة عامة من كل أعضاء الجماعة فى كافة البلاد .

وارتبك الجمع وبدت الحيرة فى وجوه القائمين على التوعية ، فالرجل يتكلم فى شجاعة ويقين ، ولايبدو عليه الارتباك والتردد ، السلاسة واضحة فى ألفاظه وكلماته ، وقلّب الرجل وجهه فى الموجودين فى تواضع شديد وتأثر بالغ وقال :

ـــ هل هناك أسئلة أخرى تطلبون منى الإجابة عليها ؟

وانبرى له واحد من ركن بعيد سأل فالتفتت الأعين إليه :

ـــ نريد أن نعرف قصة عبد الحكيم عابدين .

ومرت لحظة تأمل وتردد ، ثم التفت منير دلة إلى السائل :

ـــ وأية قصة لعبد الحكيم عابدين ؟

ـــ قد نسبت إليه أفعال وأقوال أنت بها عليم خبير .

ـــ ربما كان هذا صحيحا ، ولكنى لا أذكر تفصيل ذلك على الإطلاق .

ونطق الرجل كلامه بحزم وقوة وسكت الجميع .

وارتفع صوت عبد العال سلومة :

ـــ لننتقل إلى موضوع آخر .

كان أحمد عادل كمال أول من صعد إلى المنصة للاستجواب ، ولعله كان الثانى ، لا أذكر على وجه التحديد ، ولكن كانت المناقشة معه من أكثر المناقشات إثارة وحيوية ، ويعتبر أحمد عادل كمال من أكثر الذين عُذبوا فى السجن الحربى ، وكان يضرب به المثل ، ويعرضونه على المعتقلين الجدد يخوفونهم به ، والتقى به واحد بعد سنوات وقال له :

ـــ لقد كنت السبب فى سجنى ثلاث سنوات .

وأجابه عادل كمال :

ـــ لماذا ؟ أنا حتى لم أرك أثناء التحقيق ، ولم يذكر اسمك فيه .

فقال الرجل :

ـ جاءوا بى من البيت وأدخلونى حجرة رأيتك فيها مغشيا عليك مسلوخا تنزف دما وقالوا لى اعترف أو تكون كهذا ، فاعترفت بما لم أفعل ، وأجهدت عقلى فى إثباته ، وكان الحكم ثلاث سنوات .

وكان أحمد عادل كمال ـــ كما قلت ـــ قد خرج لتوه من محنة العذاب الشديد فى السجن الحربى ، بدعوى أن هناك تنظيما هو على رأسه والكل حريص على إثبات هذا ، وكانت المرارة بالغة ، عندما حرص عدد من المتهمين معه على إثبات ذلك أيضا ، مدفوعين من الضابط عصمت الذى يريد الترقية والمكافأة ، وأصر عدد قليل على الرفض وكان إصرارهم مع عادل كمال ، وكان إصرارهم سببا فى انتهاء هذه القضية ، ومن ثم لم يقدم أحد إلى المحاكمة .

وعند خروج عادل كمال من السجن الحربى إلى أبى زعبل استوقفه شمس بدران ، وانتحى به ناحية :

ـــ هل تعرف إلى أين تذهب ؟

ـــ كلا .

ـــ أنت ذاهب إلى المعتقل ، معتقل لاضرب فيه ، ولكن لاخروج منه .

ـــ لماذا ياسيادة العقيد ؟ لقد ثبتت براءتى .

ـــ عندما أتكلم أنا تسكت أنت هل تفهم ؟

وانكمش أحمد عادل كمال وهو يتمتم :

ـ أفهم ياسيادة العقيد .

وانبرى شمس بدران يحدثه فى عظمة وخيلاء :

ـــ قد انعقدت لجنة ، وقررت اعتقال مجموعة من الناس أنت منهم ، ولا يفرج عن معتقل واحد إلا باجتماع هذه اللجنة ، وإجماعها على الإفراج عنه ، وهذه اللجنة لن تجتمع مرة أخرى ، فهى قد شكلت لتحديد من يجب اعتقاله إلى الأبد ، والأبد شىء بعيد .

وأنصت أحمد عادل كمال مستسلما هادئا ، ولم تفارقه رزانته رغم بشاعة ماكان يقوله شمس بدران ، وكأنه ينتظر منه إجابة أو كلاما .

ـــ مالك لاترد .

ـــ لقد أمرت سيادتك بأن أصمت ، وليس هناك ما يمكن قوله .

ـــ ألا يجعلك هذا تشعر بالخوف ؟

ـــ ليس أكثر مما رأيت ياسيادة العقيد .

ونظر إليه شمس بدران طويلا ، وارتسمت على وجهه ابتسامة شيطانية :

ـــ أستطيع أن أنقذك من هذا .

ـــ يكون لك الشكر الكثير ياسيادة العقيد .

ـــ لهذا ثمن يجب أن تدفعه ، نحن على اقتناع تام من أنك كنت على رأس تنظيم سرى ، الغرض منه قلب نظام الحكم ، ورغم عدم إثبات ذلك فى التحقيق الذى تم ، أنت وغيرك لم يثبت ضدهم شىء ، ولكنهم سيظلون فى المعتقل إلى الأبد ، وكما قلت لك أستطيع أن أستثنيك من هذا .

ـــ قلت إن هناك ثمنا لهذا .

ـــ بالضبط . أى مسئول فى أى موقع من أرض مصر لابد وأن يكون من رجالنا ، يكتب لنا التقارير ، وينقل لنا أخبار كل شىء ، وينفذ ما نريد منه دون مناقشة ، هكذا الأمر دون مواربة ، أفرج عنك وأمنحك وظيفة كبيرة عظيمة ، وتكون كما قلت ، تكتب لنا التقارير ، وتنقل لنا الأخبار .

ـ .....

ـ مالك سكت .

ـ ليس عندى ما أقوله ياسيادة العقيد .

ـ إذن فأنت تفضل المعتقل الأبدى .

ـ لايوجد شىء لانهائى ياسيادة العقيد ، لكل شىء نهاية .

ـ هيا لتلحق بالصف فقد جاءت العربات ، اعتقال لانهاية له وسوف ترى بنفسك صدق ما أقول .

وفى صمت ركب « أحمد عادل كمال » العربة وأخذت طريقها إلى القلعة ، فأبى زعبل ، حتى مثل أمام لجنة التحقيق فى جمع المعتقلين الغفير ليجيب عن الأسئلة التى كانت تأتيه من كل جانب .

ـ متى انضممت إلى النظام الخاص ؟

ـ متى أنشىء النظام الخاص ؟

ـ هل كنتم على حق ؟

ـ هل أنتم جماعة المسلمين أم جماعة من المسلمين ؟

ـ ما الذى فعله الرئيس جمال عبد الناصر حتى تحاربوه ؟

ـ ماذنب الشباب الذين ضللتموهم وخدعتموهم ؟

وكان وجه الرجل ساخرا نبيلا ، تعلوه ابتسامة تشكل تعبيرا لايمكن أن ينسى ، فهى مزيج من أشياء عديدة ، وكأنه تجرد من الخوف ، ولم يبق عنده غير الإشفاق الساخر ، مع روح التحدى المتوثبة ، التى كانت أيام كان يقاوم الإنجليز

فى القاهرة والقنال ، واليهود أيضا فى القاهرة وفلسطين . وفى هدوء ارتفع صوته الهادىء الذى لايكاد يسمع :

لا أستطيع الإجابة على هذه الأسئلة دفعة واحدة .

وارتفع صوت :

ــ متى انضممت إلى النظام الخاص .

وفى بساطة أجاب :

ــ لا أذكر على وجه التحديد ، ربما عام (١٩٤٦ أو ١٩٤٧) .

ومن زاوية حسب تدبير المخرج الذى أشرف على العرض انطلق صوت :

ــ متى أنشىء النظام الخاص ؟

ــ يقولون إنه أنشىء عام (١٩٤٢) ، وظنى أنه قد انشىء قبل ذلك ربما عام (١٩٣٨) ، بعد ثورة فلسطين ضد اليهود عام (١٩٣٦) ، وبعد توقيع المعاهدة المصرية الإنجليزية فى العام نفسه ، وهناك سؤال فاتكم ، لماذا أنشىء هذا النظام الخاص ؟ والإجابة لتحقيق الأمانى الوطنية والقومية ، لحرب الإنجليز فى مصر ، واليهود فى فلسطين .

وجاء صوت حاد رفيع من أقصى المكان :

ــ كانت هناك أخطاء فى تصرفات النظام الخاص .

وفى هدوئه الذى لايفارقه أجاب أحمد عادل كمال :

ــ لايخلو أى عمل فى الدنيا من أخطاء .

وانطلق سؤال كأنه السيف القاطع الصارم :

ـــ أنت قتلت السيد فايز عبد المطلب ، لماذا ؟

ـــ هذا غير صحيح .

ـــ ماهى معلوماتك عن قتل السيد فايز عبد المطلب ؟

ـــ ذكرت الصحف فى تلك الأيام أن الأستاذ إبراهيم هاشم ، وكيل النائب العام فى نيابة شمال القاهرة ، قد واصل التحقيق فى حادث الانفجار ، الذى راح ضحيته المرحوم المهندس «السيد فايز عبد المطلب » وشقيقه وإحدى السيدات ، وكانت إحدى شقيقات المهندس القتيل قد ذكرت فى التحقيق ، أن شخصا حضر إلى المنزل وسلمها صندوقا من الورق المقوى ، هدية إلى شقيقها من صديق له ، كان متهما معه فى إحدى القضايا .

ـــ أنت المعنى بهذا ؟

ـــ هذا صحيح .

وتدخل عبد العال سلومة :

ـــ أكمل حديثك لوسمحت .

واستمر عادل كمال كأنه لم يعارضه أحد :

ـــ تعرفت شقيقة المرحوم سيد فايز علىَّ أثناء العرض الذى أجرته النيابة ، وقالت إننى الذى أحضرت هذه العلبة التى أدت إلى الانفجار .

ـــ هذا دليل دامغ .

وواصل الحديث دون أن يلتفت إليه :

ـــ أثبت للنيابة أين كنت فى يوم الحادث طوال النهار .

ـــ وكيف أثبت هذا ؟

ـــ كان ذلك اليوم إن لم تخنى الذاكرة من أيام نوفمبر ، وكان شديد الزوابع والعواصف ، وبقينا فى المنزل سويا من أول النهار إلى آخره فى أثناء حدوث الحادث ، كنت أنا وأحد الإخوان المسلمين ، وقد شهد بهذا فى التحقيق .

ـــ كنتم تعملون عملا له صلة بالنظام الخاص ؟

ـــ بالضبط . وعندما ووجهت شقيقة المرحوم بأقوال الشاهد عدلت عن أقوالها ، وقالت إن شخصا أوهمها أننى القاتل ، وطلب منها التعرف علىَّ أثناء عرض النيابة . وقد تبين للنيابة أن هذه الواقعة لاسند لها من الحقيقة ، وهذا ما ذكرته الصحف فى تلك الأيام ، وقد حققت معى أجهزة تعرفون كيف كان تحقيقها يدور ، وثبتت براءتى من هذه التهمة الشنيعة ، فكل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه ، وكان المرحوم سيد فايز أخاً عزيزا ، اشتركنا سويا فى أعمال عظيمة لها قيمتها على المستوى الوطنى والقومى والإسلامى .

ـــ من قتل سيد فايز فى رأيك ؟

ـــ الظن أنه كان يجرب بعض العبوات للتفجير ، فانفجرت واحدة وحدث الحادث ، أما الحقيقة فيعلمها الله سبحانه وتعالى .

وانطلق سؤال :

ـــ من كان معك فى البيت طوال النهار الذى قتل فيه سيد فايز ؟

ـــ الأخ إبراهيم صلاح ، وهو حى يرزق ، ومعروف لدى أغلبية الموجودين .

ـــ إذن فأنت لم تقتل سيد فايز ؟

ـــ لقد أنشىء النظام الخاص لقتال الإنجليز واليهود والسراى ، وليس لقتال الإخوان المسلمين ، ولو استطاعت أجهزة التحقيق أن تجد أدنى شبهة ماتركتنى .

ـــ هل كانت جماعة الإخوان المنحلة هى جماعة المسلمين ؟ أم جماعة من المسلمين ؟

ـــ فى رأيى أنها كانت جماعة من المسلمين .

ـــ ومازالت كذلك ؟

ـــ هذا أمر تجيبون أنتم عليه .

ـــ والانفجارات والقنابل التى ألقيت هنا وهناك ؟

ـــ هذه أمور تم التحقيق فيها وقتلت بحثا ، والقضايا السياسية يجب أن ينظر إليها من منظور يختلف عن سائر القضايا الأخرى .

ـــ لو عاد الزمن بك هل تغير أفكارك وآراءك ؟

ـــ لقد كنت أشترك فى مقاومة الإنجليز المحتلين ، وأسهمت فى حرب اليهود الذين اغتصبوا فلسطين ، وكنت شوكة فى حلق السراى والحكومات التى سبقت ثورة ٢٣ يوليو ، وكنت أحد قلائل من خارج الجيش ، يعرفون موعد قيامها الذى أجل يوما كاملا ، وكنت أشارك فى العمل الوطنى ، وقد عرضت حياتى للخطر الدائم من أجل تحقيق غايات نبيلة ، فهل هذه الأفكار التى تودون منى أن أتخلى عنها لو عادت بنا الحياة مرة أخرى ؟

ـــ نحن نتكلم عن نقطة محددة .

ـــ وأنا أتكلم عن نقطة محددة أيضا .

ـــ أنت تراوغ وتلعب بالألفاظ ، ولاتريد أن تجاوب بصراحة على الأسئلة .

ـــ أنا على استعداد كامل للإجابة عن أى سؤال .

ـــ بالطريقة التى تريدها ؟

ـــ لاتوجد طريقة أخرى أعرفها .

وتدخل عبد العال بك :

ـــ فلننتقل إلى نقطة أخرى .

ونزل أحمد عادل كمال من فوق المنصة ومشى بين صفوف الجالسين ، حتى وصل إلى مكانه بجانبى قبل أن يصعد وسألنى :

ـــ مارأيك فيما قلت ؟ يبدو أننى لم أحسن التعبير .

وهمسا وخوفا من أن يسمعنى أحد :

ـــ لقد أجملت وأحسنت وكنت شجاعا .

وجلس الرجل بجانبى مهموما مثقلا بسنين طويلة من الكفاح ، ترقد فوق كتفيه ، وتطل من بين عينيه المتوثبتين ، وظل يشاهد العرض الردىء ، وتعلو وجهه غمامة حزن لضياع تلك الحقبة من التاريخ فى نظر أصحابها .

وكان الذعر والصمت يخيم على الجميع ، ولا يقطعه غير صيحات الهرج والمرج فى الحلبة الرومانية ، حيث الأصوات العالية ، من جمع غفير ، قد خلا من الأسود والشهداء .

كانت هناك بعض الجمعيات الإسلامية فى معتقل أبى زعبل ، ولها بعض الممثلين عنها ، كالجمعية الشرعية والهداية الإسلامية ، ومعها الشيخ حافظ سلامة ، وبعض جمعيات أخرى صغيرة ، منها ما تكون لدفن الموتى من المسلمين الذين لا يجدون نفقة ينفقونها عليهم لدفنهم ، ولا أدرى لماذا أتوا بهم إلى المعتقل ، ولماذا أشركوهم فى هذا المهرجان الصاخب الكبير ، والكل يسب جماعة الإخوان والأوامر تقضى بهذا ، ففى لحظات الصمت ينطلق الهتاف منظما يقوده دعاة منظمون مدربون ، قد أعدوا من قبل ما يصرخون به .

وكانوا كثيرا ما يتركون الناس يهتفون بأنفسهم ، ويرتجلون فى صراخهم .

ورأيت « عبده معروف » وهو يقترب من أعضاء الجمعية الشرعية ، بلحاهم البيضاء الوقورة وعمائمهم الكبيرة ، وكانوا أربعة هالهم مارأوا ، وكان اضطرابهم عظيما ، فهم يهتفون مع الهاتفين ويصرخون مع الصارخين فى نشاز يؤثر على الإيقاع ، ونغمة شاردة تائهة خائفة ، ولكنهم يرددون . وقال لهم « عبده معروف » :

ـــ لاتسبوا الإخوان ، بل اهتفوا بسقوط جمعيتكم ، تعليمات الحكومة تقضى بأن يسب كل واحد جماعته ، فالإخوانى يشتم الإخوان ، وعضو الجمعية الشرعية يلعن جماعته ، وأصحاب الهداية الإسلامية يسبونها ويتبرءون منها ، ولايجوز لأحد أن يسب غير جماعته .

واهتزت العمائم الكبيرة ، واضطربت اللحى البيضاء الخائفة المرتعشة ، وعزفت لحنا جديدا بنشيد مختلف .

ورآنى الشيخ محفوظ كبيرهم ، وكان رجلا طيب القلب صالحا ، تعرفت عليه بعد ذلك ، وجاورته سنين طويلة ، وكنت أنظر إليه متأملا شاردا ، وسكت الرجل عن العزف والإنشاد ، وبدت فى عينيه علامات الاعتذار ، وهمس لى :

ــ فلنتحمل هذه الضجة ، قليل من « الهيصة » والهيجان ثم نذهب إلى بيوتنا .

وابتسمت له مطيبا خاطره ، فالكل شركاء فى هذا المهرجان .

وقد خاب أمل الشيخ محفوظ ، فقد مكثنا فى السجن بضع سنين بعد هذا الحادث .

كانت آثار التوعية بالغة ، فقد كنا نعود إلى العنابر مساء وقد أنهكت قوانا من الهتافات المتكررة التى أجبرنا عليها ، ومن الجلوس على البلاط فى البرد الشديد ، وعدم تقديم الطعام الردىء فى موعده ، بل كانوا يؤجلونه حتى نهاية المهرجان ، والانفعالات التى تملأ القلب بالخوف والوجل والترقب ، ويجلس كل وحد على نمرته خائفا يشغل نفسه بشىء يفعله حتى يتجنب النظر إلى من بجواره خجلا أو خوفا .

وكل يحاول تبرير تصرفه فى النهار ، فى تصرفات يائسة ساذجة ، أو كلام لامعنى له إن أسعفته شفتاه بالكلام ، وكل يحاول أن يتخيل لحظة انتهاء هذا المهرجان ، وكيف يمكن أن يعود بشرا سويا أمام زملائه وقرنائه ، ويغرق الجميع فى شجى عميق وحزن بالغ يملأ النفس ، لايستطيع أحد أن

يظهره ، وإلا فهو يصنف من أعداء الحكومة ، تلك الحكومة القوية القادرة ، المتمكنة من أفواه الناس وتريد التمكن حتى من خلجات نفوسهم ، ثم يأتى النوم ، فلا يستريح أحد ، فخواطر المساء أكثر ازدحاما فى النفوس والرءوس ، أما النهار فكله انشغال بجودة الأداء ، والانتباه إلى أية معلومة ، أو أمر قد يأتى من مكان مجهول ، عبر فم لا يدرى أحد فى أى الوجوه كان ، ومن خلال صوت يأتى من قريب أو بعيد ، لا يمكن لنا استعادته من جديد ، فهو الغيب ، أو قدر كان ويكون ، يسعى إلينا ونسعى إليه ، ونحن معه صنوان فى تنهيدة خافتة ، وآهة تخرج من جوف الليل ، ملتهبة بالكلمات والذكريات العبقة العميقة . ونهار صعب يأتى بعده ليل أكثر صعوبة ، فعودة إلى أحاديث القردة والخنازير من جديد .

عندما يصبح القاضى سفاحا قاتلا ، وعندما ترى نفسك ، وقد اضطررت للوقوف أمام جلاد ترتضى حكمه فيك ، لك أو عليك حسب مايرى ، أو حسب مايكون عليه مزاجه ، فالحسرة عند ذاك عظيمة وألم النفس بالغ ، وهوانها عليك وعليهم أبعد أثرا وأكثر حدة . وهى لحظات تبحث الذات فيها عن الإيمان فى أعماقها ، وهو الملاذ والمعين فى عالم قد فقد شكله ومعناه ، وغاية ما يفعله الإيمان فى لحظة من تلك اللحظات أن يحمى النفس من الدمار والضياع والتمزق .

وكانت الأيام الأولى لتلك التوعية تجعلنا لاننام الليل من كثرة التفكير ، وكانوا يحرصون على إيقاظنا فى الصباح المبكر ، وقد ساعدهم على ذلك الذباب الكثير الذى يملأ العنبر مع خيوط الصباح ، وبعد أن توالت الأيام بعد ذلك ، صرنا نشعر بالجهد الحاد من قلة النوم ، والشك والخوف

والتمزق يملأ النفس بالحسرة فسرعان ما نشعر بالتعب الشديد ، ونستغرق فى نوم هو إلى الكوابيس الثقيلة أقرب ، فكأنه عذاب القبر فى عالم البرزخ قبل أن يطلع النهار .

قل المرح فى نفوس الناس ، وغشيت المعتقلين كآبة عميقة ، ومرت أيام على بداية التوعية ، فصار الناس يؤدون فى آلية ورتابة ، وكل شىء مفروض عليهم ، وليس أمامهم حق الاختيار ، وشعورهم أن العيون ترصدهم من كل جانب، وكأن مسجلا كبيرا يلف المكان ، فهم إلى الحذر أقرب ، ورحمة الله وفرجه قريب من المحسنين .

واقتربت التوعية من أيامها الأخيرة ، وتسلل الفرج إلى الصدور فهى علامة لساعة الرحيل عن المعتقل ، هكذا ألقى فى روع الجميع ، وقد آذنت الرحلة على النهاية ، ولم يبق على ذلك إلا ساعات قلائل .

ظهر سادة جدد لمجتمع الإخوان من الإخوان ، وترأست أسماء كثيرة وصارت لها المكانة والسلطات . وكنا نميز هؤلاء السادة بحلاقتهم المتأنقة وملابسهم النظيفة الغالية ، والأمور نسبية بطبيعة الحال ، وكان واحد من هؤلاء السادة الجدد يضمخ وجهه وملابسه ببعض العطور ، فكنا نعرفهم بهذا ، ونعرفهم فى لحن القول .

الجوقة كما هى ، والعازفون فى مكانهم ، ولم يتغير غير النشيد .

وكانت هناك غرفة فى الطابق الأول ، بها مكاتب ومقاعد وأوراق كثيرة ، وآلة للكتابة ، عليها من يدق طول الوقت ، وأوراق تكتب ، وأوراق تخرج ، وأخرى تدخل ، وقوم معلمون يروحون ويجيئون فى جدية وكتمان ، وسرى بين

الناس خبر مؤداه أن المهرجان ماهو إلا امتحان ، وفيه نجاح وفوز ، وفيه أيضا رسوب وفشل ، والكل قائم على المرصد ، يرصد الدرجات ويحصى الخطوات ، ويبصر الأنفاس وهى تهمس لاهثة ، ويقيد النظرة وهى تخون الجميع ، ويكتبون ويكتبون حتى يأتى الموعد . وجاء الموعد وانفض الناس بعد حين قريب بعيد .

انتهت التوعية : ومكث المعتقلون فى العنابر أياما طوالا ثقالا ، لايعرفون ما يراد بهم ، وكانوا يخرجون من كل عنبر واحد أو اثنين ، ولايظهر واحد منهما إلا مع الليل ، ويدخل بعد أن يفتح له الشرطى الباب ، ثم يغلقه مرة أخرى ، ولايكلم أحدا ويسكت جميع الناس ، ولاينطقون إلا مع الصباح وظهرت نتيجة الامتحان .

لا إفراج هناك .

ولكنهم يؤكدون أنه قادم .

نادوا على كل من كان فى الطابق الثالث وأخرجوهم فى جماعات ، وظن الناس أنه قد أفرج عنهم ، ولكنا علمنا بعد ذلك ، أنهم ذهبوا بهم إلى معتقل مزرعة طرة . وأعادوا توزيع كل من بقى فى الدور الثانى من جديد ، بعد أن قل العدد إلى النصف .

وجمعوا ستة وثلاثين شخصا فى عنبر (١٢) ، وقالوا : إنه العنبر الذى لن يفرج منه عن شخص واحد ، حتى تقوم الساعة ، وهكذا كانوا يرددون وسموه عنبر الزعماء ، وكان بالعنبر أغلب من تم استجوابهم فى التوعية . فكان هناك منير دلة ، ومحمد قطب ، وأحمد عادل كمال ، وشكرى

مصطفى ، وحافظ سلامة ، وشمس الدين الشناوى ، وأحمد نصير ، ومحمد المأمون الهضيبى ، ويوسف كمال ، وصلاح الأنور ، وعبد الفتاح المحروقى ، وعزمى بكر ، ومصطفى كامل ، والسيد عيد ، وفريد العراقى .

ولست أدرى لماذا وضعونى فى زمرة هؤلاء الفضلاء الذين وصفوهم بالزعماء .

وماهى إلا أيام فى العنبر الجديد ، حتى شعرت بالنقلة المختلفة التى انتقلناها ، فقد تبدد الخوف أو كاد ، بعد أن تبين الناس وعلم أصحاب عنبر (١٢) ، أن لا خروج منه على الأقل إلى أمد ليس بالقريب .

ارتفعت الأصوات قليلا ، وتنفس الجميع الصعداء ، ورانت على القوم سكينة وهدوء ، فلم يعد هناك أمل فى الخروج ، واليأس أحد الراحتين كما يقول العلماء والحكماء .

وكثر الهرج والمرج فى المعتقل من جديد ، وقالوا : إن التوزيع الذى تم على العنابر قد تم بخطة مدروسة ، وأن كل عنبر له درجة من الدرجات ، وليست هناك قاعدة لتكشف القاعدة التى بنى عليها هذا التقييم ، واتفق الجميع على أن أسوأ العنابر حالا هو عنبرنا عنبر (١٢) وأن هناك ترتيبا آخر للعنابر لايعتمد على الأرقام .

وطالب البعض بإعادة التقييم من جديد .

وحدثت مظالم ومزالق وكان تهافت ، وشغل الناس ، وكان عنبر (١٢) بعيدا إلى حد كبير عن هذا الشغب ، فهو عنبر خارج عن اللعبة كما يقولون .

وسارت الأيام بطيئة ، وعنبرنا قد تهيأ لاعتقال طويل .

وكانت إدارة المعتقل من المعتقلين ، قد تغيرت وشكلت إدارة أخرى ، تختلف عن سابقتها بعد رحيل سكان الدور الثالث .

وكانت أصوات ترتفع بالتعايش السلمى مع الحكومة وقبولها ، وكان هذا أمرا واقعا لايقدر أحد على رفضه إلا عدد قليل .

وارتفعت أصوات أخرى ، تطور الأمر ، وتطالب بالعمالة للحكومة بكل معانيها الرخيصة ، ورفض هذا الصوت أغلب الناس جهارا ، وصمت البعض لا يؤيد ولا يعارض ، وقد تملكته حيرة من أمره وأصبح لايدرى ماذا يفعل .

ثم جاء يوم صعب .

وأعلن عبد الناصر إغلاق مضيق تيران ، وصنافين فى وجه الملاحة الإسرائيلية ، وأخبرنا الضباط أن هذا معناه الحرب مع إسرائيل .

وأحب أن أذكر هنا شيئا لمسته بنفسى ولمسه آخرون .

كان محمد قطب يقول لى — وكنت أسكن على مقربة منه فى العنبر : إن رؤى صادقة يراها فى منامه . وكنت أقول له : إن الرؤى الصادقة تكون غير محددة المعالم فى ظنى ، ولكنها تتكلم عن أشياء عامة أو تنبىء عنها .

وكان يقول : إنه يرى رؤى محددة المعالم عن أشياء واضحة لالبس فيها ، وطلبت منه أن يخبرنى ببعض هذه الرؤى عندما يراها وقبل أن تتحقق ، ووافق الرجل على هذا وقدم لى أمثلة كثيرة أدهشتنى ، ولكن الذاكرة لا تسعفنى .

أذكر منها مرة عندما طلع الصبح اقترب منى باسما باشًّا :

ــ سيأتى عبد العال بعد ثلاث .

وكان الأخ عبد العال محمد الأستاذ بكلية الهندسة ــ جامعة أسيوط ــ قد رُحِّل إلى سجن القلعة ، منذ أكثر من شهرين ، وكانت الأخبار منقطعة ، ولانعرف ماتأتى به الأيام فى الغد ، بل كنا نعرف الأحداث عندما تكون .

وقلت له :

ــ ماذا تعنى بثلاث ؟

فقال :

ــ ثلاثة أيام أو أسابيع أو شهور .

وأكملت له :

ــ أو سنين ؟

ولكنه قال فى بشاشة وثقة :

ــ بل ظنى أنه بعد ثلاثة أيام .

ومرت الأيام وجاءوا بعبد العال من القلعة فى منتصف اليوم الثالث .

وكنا فى منتصف شهر مايو من عام (١٩٦٧) .

وجاءنى « محمد قطب » كعادته فى صباح الرؤيا الصالحة :

ــ ثلاثون يوما تبدأ من الغد فى كل يوم حدث عظيم ، ونسر يتطاول فى الفضاء ، ثم يهوى صريعا من شاهق .

وتعجبت لرؤياه وسألته عن معناها فقال :

– أخبار تأتينا من الغد ، كل يوم خبر يرفع اسم عبد الناصر عاليا ، ثم يهوى من شاهق ، فى آخر الأيام الثلاثين ، وتنتهى أسطورته ، ويبطل السحر .

وامتلأت دهشة وأنا أسأله :

ـــ هل تظن هذا ؟

وقال الرجل ببشاشته وابتسامته التى لاتفارقه :

ـــ أنا واثق من هذا ، الرؤيا الصالحة من الله .

وكان ما قال بالضبط ، ويشهد على هذا من يذكر الأحداث من أهل عنبر (١٢) ، الذين كانوا مقربين من « محمد قطب » ومازالوا أحياء .

وبدأت الأحداث تترى يأخذ بعضها بخطام بعض كما وصف الرجل على وجه التحديد ، والذى يراجع صحافة تلك الأيام ، يلحظ العناوين التى كانت تنزل كل يوم عن حدث جديد وخبر مثير ، وصحافة العالم كلها تهرع إلى مصر لتشهد النزال ، والنسر يعلو إلى أجواز السماء ، ويتكلم فى مؤتمر صحفى عالمى ، أنه على استعداد لنزال الأحمر والأسود ، وأن إسرائيل أقل من أن يلتفت إليها ، وأنا أعاود السؤال على محمد قطب .

ـــ هل تظن رؤياك تكون ؟

ويقول الرجل مطمئنا دائما :

ـــ سوف ترى بنفسك .

وانشغلت بالأحداث عن رؤياه .

وظهرت بشائر تغير فى تاريخ المعتقل ، وفى تاريخ مصر وتاريخ العرب .

فى هذه الأيام سمحوا لنا بالصحف ، وكانت محرمة علينا ، وزعوا على كل عنبر من العنابر صحيفة من الصحف المصرية وكانت كلها متشابهة لاتختلف إلا فى اسم الجريدة ، (الأهرام ، الأخبار ، الجمهورية) أسماء مختلفة والموضوعات واحدة متطابقة ، الاختلاف فى عنوان الجريدة واسمها ، وفى أسماء الموتى المكتوبين فى الصفحة قبل الأخيرة .

وكانت الصحيفة تدخل العنبر فيتزاحم الناس عليها يتخاطفونها ، أو يمزقونها إلى صفحات ، كل مجموعة تمسك بورقة ، ثم أتفقنا أن يقوم واحد فينا جهير الصوت بقراءة الجريدة كلمة كلمة ، حتى الإعلانات المبوبة ، فقد كانت تلك أول مرة نحصل فيها على شىء مثل هذا .

وكنا ننتظر الصباح لنطلع على مافيها ، رغم ما فيها من هراء .

ثم صاروا يفتحون المذياع على نشرة الأخبار ، من خلال مكبر للصوت يسمعه كل من فى المعتقل ، وكانوا يفتحونه أيضا على إذاعة صوت العرب ، حيث يدق أحمد سعيد طبول الحرب .

وخيم الذهول على الناس ، فأكثرهم عقلاء مجربون يفهمون ، ولكنهم لايكادون يدركون .

ولم يكن كل الناس قد سمع برؤيا محمد قطب .

وانتحى بى أحد الأصدقاء القدامى وقال لى :

ــ لقد خدعنا طويلا وعلينا أن نسلم لعبد الناصر وإلى الأبد ، الرجل يجاوز عنان السماء .

وقلت له :

ــ أنت واهم الرجل يرتفع إلى عنان السماء ، ثم يهوى من شاهق ، إنها الحرب ، وهو مهزوم فيها لامحالة ، لقد صنع نظاما لايقوى على حرب .

وهذا الصديق مازال حيا حتى الآن .